هاتف السيدة نجوى

معلومات

الكتاب: هاتف السيدة نجوى
الكاتب: خالد أخازي
الصنف: رواية
اللغة: العربية
عدد الصفحات: 195
الحجم / المقاس: 14 × 21 سم
التدقيق اللغوي: دار الوطن
الإخراج الفني: محمود عنتر
لوحة الغلاف: الأمل للفنان:
Enrico Campagnola إيريكو كوبانيولا
الطبعة الأولى: ديسمبر 2023
السحب: مطبعة بلال

الناشر:
دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر للطباعة والنشر
7، زنقة الكوفة، الرباط 10000 -
المملكة المغربية
رقم الهاتف الأرضي: 021207735212+
رقم الهاتف الجوال: 086241706212+
البريد الإلكتروني:
daralwatan2018@gmail.com
صفحة فيس بوك:
facebook.com/daralwatan2020

رقم الإيداع القانوني: 2023MO5297
الترقيم الدولي: (ردمد) ISBN: 978-9920-590-92-1

حقوق الطبع محفوظة للناشر

حقوق الطبع محفوظة للناشر: لا يجوز نقل أو نسخ محتوى هذه المادة جزئيا أو كليا سواء عبر النشر المكتوب أو الإلكتروني (مسموع أو مرئي) كما لا يمكن استعمالها لأي غرض إلا بإذن خطي موقع ومختوم من الناشر، وذلك تحت طائلة المتابعات القانونية الخاصة بحماية الملكية الفكرية والأدبية.

هاتف السيدة نجوى

خالد أخازي

2023

الإهـــداء

إلى زوجتي.... خيمتي في القَيظ والهمر..

إلى زوجتي رفيقة حِبري وعُمري وشَغفي وشغبي..

إلى زوجتـي... وهـي تمنـع الشـيخوخة مـن أن تـدقَّ بـاب وجـداني وكينونتي باسـم الزَّمن والمِحَن وليس لها من سـلاح غير تجديد الحلم والآمال...

إليهـا كلما تذكرتُ كَبَواتي وإخفاقاتي وظلَّت هي بإلحاحٍ تضيء للروح قنديلَ الحياة بالصمود والبهاء...

وأقسمتُ لا أنسى الفصيح وأهلَه   تنفّسيَ الأنسام صبحَ مساءِ
هوًى كالحيا في المُزن إلفًا ولُحمةً   تفرّش أرضي واستظلَّ سمائي
وكيف التسلِّي عن هواه وحبُّه   بقلبيَ يجري في شذور دمائي

المتنبي

تبرئة ذمّة

كثيرٌ من الخيال في هذه الرواية يتشابك مع الواقع وتجلّياته ومفارقاته، فالوجع واحدٌ ولو استدعاه الخيال، والهوان والخِذلان يُعرفان بمرارةٍ في القلب وقسوةٍ عند الحكي..

أعلن مبدئيًّا أنني أكتب كيلا أختفي...

أحكي كي أواجه التفاهة القاتلة بالعبارة المشاغبة..

أكتب لأدين. لأمتَّع في الوقت نفسه... لأحظَى بالسلام النفسي...

من رأى في هذه الرواية تشابهًا ما... جزئيًّا أو كليًّا، فلست مسؤولًا عن الصدف أو التماهي...

الصدفة خارج المنطق، والتماهي لعبة النفس لتبوح بلسان غيرها...

من وجد شخصيَّة تشبهه فالأمر مقصودٌ وهذا مبتغاي... أنا الراوي لا الكاتب الذي لم يتحرَّر بعدُ من هَوس مأزق التأويل... وتسكن هواجِسُه زنزانة مُشرَعة الأبواب...

الكاتب يكتب بالاحتمالات، وفي كل عبارة يقصي ظلَّ جلاد، أما أنا الراوي فلا مسكن لي غير اللغة والاستعارات.

فالراوي لا يتبرَّأ من شُبهة المشابهة والمشاكلة، لأنها أجمل تهمة لرَاوٍ

كلُّ همِّه أن يُشاغب داخل خيال كاتب متردِّد، فكلَّما تشبَّهت الحياة والشخصيات بالرواية، تحقَّقت متعة الشغف والوعي...

أقرُّ أنا الراوي بكل وعيي وقوايَ العقلية بمسؤوليتي الكاملة عن كل فوضَى محتمَلة، وعن كل الشغب المتجاسِر بعدما تم تجريد الكاتب من حرية التصرُّف لشُبهة الجبن وعدم الحياد والتعصُّب للقبيلة بدل الكتابة.

الباب الأول

العالَم كما يبدُو

قال وهو ينفث الدخان في الهواء: "قال جدي الذي مات وقد بلغ المائة عام ونيِّفًا: إن الحياةَ تبدأ عند الستين سنة".
صاحب المقولة: حلَّاق حكيم

١

أنا السـيدة نجـوى، هكذا ينادونـني في العمل "مـدام نجوى"، وعلى عـادةِ مجموعـةٍ من الأوغـاد الذين أتقاسَـم معهـم قاعة التحريـر في مقرِّ الجريـدة والذيـن جَمعني الله معهـم لأعيـشَ جحيـمَ تفاهاتهـم اليوميَّة، وتبدُّلاتهم المسـتمرَّة كالحرباء، ليس خوفًا من الافتراس، وإنما تلوُّنًا يليق بالمقـام والمواقع، وليس مِن هَمٍّ لهم سـوى إرضاء الأقوياء من الرؤسـاء، والتندُّر بالبسـطاء من العاملين، كأن يتحوَّل عندهم حارس مقرِّ الجريدة إلى نـوعٍ مـن كلاب الصيد السريعة "السـلوقي" لا لشيء سـوى لأنه غير مُتلكِّـئ ولا مُماطِـل ولا مُتحجِّج بألف عُذر للتهـرُّب من مهمةٍ ما، ولأنه سريـع في أداء ما يُطلب منه غيرُ مُهـدِر للزمن، ولأنهم كذلك فلا بد أنهم اختاروا لي لقبًا يُسكِرهم ذِكرُه، ويُمتِّعهم حدَّ الثمالة، فهذا طقس رخيص من طقوسـهم الخبيثة، فكما للضغينة نارٌ فلها أيضًا نشـوة حين تنفس عن نفسها بهذا الشكل سخريةً وهزؤًا وتحقيرًا.

أنـا على يقين أنهـم وجَدوا لي كُنيَة خسيسـة تمتح من أغـوار عفونتهم العَطِنـة، تسـوغها أحقادهـم ويصبغـون عليهـا لغةً مـا تقرُّ بـه ضغينتهم الحارقـة، يتداولونها بينهم خُفيـة وسرًّا، حاضرة بينهم، فأنا مدام نجوى، وغيابًـا لا بـد أن لي وصفًا مقززًا، به يسـخرون، وتَثمُل أصنام أحقادهم، بجُبن وعُهر ومكر.

صدقَتْ زميلتي سلوى حين تُشبِّههم -ليس كلهم طبعًا- بأشباه الرجال، وظلال للظلال... وتلعنهم علانية، فقد عجزوا عن النيل منها وتحريض الرؤساء على طردِها فقط لأنها كانت ذات همَّة وعزم، ولها مكانة بالنقابة، وتُمثِّل المرأة الصحافيَّة في أكثر من لقاءٍ دوليٍّ وإقليميٍّ حتى تشعَّبت علاقاتها، وغدَتْ تُخيف الجِيَف والجُبناء، ويتردَّد الرؤساء في اتخاذ أي قرار ضدَّها، فهي ناشطة مدنيَّة نقابيَّة، وأجرَتْ حواراتٍ متميزة مع الوزيرات وزوجات الوزراء، ومع نساء غربيَّات من منظمات حقوقيَّة دوليَّة، وكانت لها الجرأة أن تتصل مع أي شخصيَّة مهما علا منصبُها من أجل تأكيد خبرٍ، أو حقِّ الردِّ، أو تصريحٍ أو الإعداد لحوار. وكلهم كانوا في حاجة إليها لإعداد موادِّهم الصحفيَّة، كلما تعلَّق الأمر بهاتف شخصية سامية والاتصال بها بدلًا منهم.

فالأوغاد جبناء... ويجدون صعوبةً في التواصُل الإعلاني مع الكبار، فإن تواصلوا مدحوا وطلبوا وخنعوا وجاروا ما يُشعِر المحاورَ بالارتياح، وقدَّموا له أسئلة تُريحه وتزيده وزنًا، ويظهرون ككائنات تكوَّمت في ركن من شدة البرد.

سيُركِّزون على قامتي السامقةِ كالنخلة حتمًا، وهي سرُّ بهائي، وعندهم قد تغدو عيبًا وخَللًا، سيتفحَّصون في جِيدي الدقيق الطويل، الذي طالما قالت عنه أمي: "ما رأيتُ أجمل وأدقَّ من عنقك في البلدة..."، ربما ساقاي الطويلتان ستوحيان لهم وحيًا بلَقَب هابط، ألم يقُل زوجي عدنان

إن أول ما رأى في ساقيَّ الجميلتين الطويلتين المصقولتين كأنهما نُحِتا من شمع ناصع البياض...؟!

لم يرَ أولًا لا شعري الفاحمَ الكثَّ المسدولَ، ولا عينيَّ الجميلتين، ولا صدرِيَ النافرَ، ولا ابتسامتي التي قال عنها الصحفي حسون متلعثمًا: "يكاد النورُ يقفز من عينيك كلما ابتسمتِ وتورَّدت شفتاكِ وخدَّاكِ".

يومذاك لم أكن أعرف نواياه، حسبتُه تحرُّشًا ليس في محلِّه، فقسوتُ عليه بنظرةٍ ثاقبةٍ وتجاهلته لمُدَّة شهر، إلى أن حلَّ عيد المرأة، قدَّم لي وردةً ومعها ورقة كتب عليها: "إلى الأخت التي يتمنَّاها كل إنسان... أختي جميلة.... أخوكِ حسون".

فهمتُ الرسالة، وفهمتُ الرجل، وأصبح مِن أقرب أصدقائي، فقد كان متخلقًا حييًّا يحترم المرأةَ ويدافع عن قضاياها بشراسةٍ وصِدقٍ.

هم أوغادٌ بمعنى الكلمةِ، في لبوس المثقفين، وإن عالم الصحافة ليعجُّ بالمحظوظين والمحظوظات من ذوي التوصيات والأرقام المهمَّة في ملفات تبادُل المصالح والمنافع، والمواقع والمقاعد، هؤلاء الأوغاد قد يحتكمون إلى مَعالِمِ جسدي، يُدقِّقون في الأبعاد غير المتجانسة فيه، من طول عظمٍ إلى طفح لحمٍ، ومن هندسةِ جبهةٍ إلى مقدِّمة رأسٍ، يقتفون في الضحيَّة أثر حيوان أو حشرة أو غريبة من الغرائب، لتتفتَّقَ عبقرية بهلواني منهم عن لقب ساخر، ما إن يقُلْه وهم يُحملقون بمتعةٍ فيه مُتحفِّزين بشوقٍ حتى يقفزوا متعةً وخبثًا في صخب وضحك جنوني، وقد يضرب

أحدهـم الأرضَ بقدميه بقوَّة مشـيدًا بذكاء الذي ابتـدع اللقب، أعرفهم جيـدًا، قد أُصبِـح في جِدالاتهم حيوانًا مـا، كما يُلقبـون الصحافي الطيِّب الحيي "حسون" بالقِرد، فقط لقِصَر قامته ونشاطه المُفرِط، وطريقة كلامه التي يُكثِر فيها من التعبير الحركي وتغيير ملامح وجهه صادقًا مندمجًا.

أمـا سـلوى زميلتي وصديقتـي المقرَّبـة فيُلقِّبونها بالهاربـة، فقط لأنها بوهيميـة، حـرَّة، أبيَّة النفس، صعبة المِراس، تلـج في كل حوار ولا تُقهر، غـير نمطيَّة اللبـاس ولا الهندام، فإن صخِبَ أحدهـم صخِبَت، وإن علا صوتـه علا صوتها، وترغـد إن أرغد وأزبد حتى تُخِيف وتُخجِل مشـاغبةً ممانعـةً صلبـةً، تعاملهـم معاملـة النـدِّ للندِّ، وحـين تضطـرم الأحقاد في صدورهم يسـتعملون الألقاب القاتلة، فقد يصبح أحدٌ ما شـاذًّا بشـهود عـدول عندهـم فقط وحكايـات محكمة الأحـداث، فقط لأنـه صاحب قلـم متفرِّد بالجريـدة، أو لأنه مختلِف، والمختلِف عندهـم متَّهم وعليه أن يـؤدي ثمن اختلافه وموهبته في عمله مزيدًا من العداوة الخفيَّة والأحقاد المتوارية. سيسعون بحماس واجتهادٍ لضربه في مقتل وترويج الإشاعات عنه.

مـا رأيتُ تحاسـدًا أبشـع من تحاسُـد المثقفين وأشـباههم، ومـا رأيت ضغينةً في الصدور أفظع من ضغائن أشـباه المثقفين والكتبة، فالقِلَّة منهم رفعَهـا قلمُها مرتبـةَ الترفُّع عن الصراعات والمؤامـرات، ولا وقتَ لديها للخصومات المجانيَّة.

لا ميـزة لهـذه الليلـة من خريف عام ١٩٩٢ سـوى أنني فيها سـأقفل

الستين سنةً، لهذا هي غريبة وحالكة وباردة وموحِشة، فقد انتبهتُ مؤخرًا أنني بدأت أَشِيخ، فبعض الناس أصبحوا ينادونني بالحاجة، البقَّال والجزَّار وسائق سيارة الأجرة، لا يتردَّد أحدهم في مناداتي بالحاجة، في وطني لقبُ الحاجة يُطلَق على كل عجوزٍ وشيخٍ ولو لم يحُجَّا، هو لقب ديني غدا اجتماعيًّا زمنيًّا يُطلَق من باب الاحترام والوقار على مَن شاخ وهَرِم أو قارب الهرم، وهو في الوقت نفسه تصنيفٌ اجتماعيٌّ قاسٍ عند الناس بمعاييرهم وأعرافهم، ففيه الوقار إلزام، والتعبُّد دأبٌ، وملازمة المساجد عادة، والزهد مَطلب، والبُعد عن الفواحش لازم مُلزِم، وتغليب أمور الآخرة على ما تبقَّى من فضل الحياة راجحٌ رجيح لمن خطا بعد الستين. فلا تُقبَل منه زلَّة، ولا تُعذَر له شُبهة، ولا تسامُحَ مع شهوة، ولا تساهُل مع نزوة.

أنا صحافيَّة تقاعدتُ اليوم، نظمَتْ لي الجريدة حفلَ تكريمٍ لتوديعي... حفلاتُ التكريم إما تأتي متأخِّرة كنعيٍ مُبكِّر أو مسرحية لصناعة رموز مزيفة وراءها جوقة تتوزَّع الأدوار، أعرف ناقدًا مزيفًا كلما اشتهى شابَّة تصيدها في الفايسبوك، ونظَّم لها حفل تكريم في مدينة بعيدة، زملائي وزميلاتي قدَّموا لي مصحفًا ولوحةً نُقشت عليها آية الكرسي بحِبر ذهبي، هم أيضًا يؤمنون أن الحياةَ بعد التقاعد هي للصلاة والعبادة وانتظار الأجَل، زميلتي سلوى أهدتني عطرًا وهمسَتْ في أذني تنظر للجمع بنظرات قاسية وساخرة: "هؤلاء الحمقى يحفرون القبور للأحياء

وينتظـرون... يا نجـوى...! لقد بدأ عمرك الذهبـي... أنت أصلًا كاتبة والكتابة لا عُمرَ لها..." واسـتغربتُ اليوم للكلمات التي قُدمت في حقي، هي نفسـها التي تُلِيـت وقُدِّمت في تكريم زميلٍ تقاعد السـنة الفارطة، يا عجبًـا...! الكل أصبح صديقًا حميمًا ودودًا، ويتأسَّـف على رحيلي، الكل حزين، ومنهم من اغرورقت عيناه، وكاد ينحط نَحِيطَ النساء.

في حفل تكريم المحالين على المعاش الكل يصبح خيِّرًا وطيِّبًا... حنونًا عطوفًا... الكل زعم اليوم أنني سـأترك فراغًا لا يُعوَّض، وكلُّ مَن يودِّع العمـل يُتـوَّج ذاك اليومَ نبيَّ يـومٍ وليلةٍ، ويعبر الجميع لـه عن حزنهم... لكـن مـا إن يُفـتَرَس افتراسًـا قالبُ الحلـوى حتـى يعـودوا إلى طبيعتهم وفِصامهم ونقائصهم وهم يتهامسون، وحتمًا خُفية يقولون: "تخلصنا من الزرافة...".

يسـمونني الزرافـة، هذا ما قالته لي زميلتي سـلوى، فأنـا فعلًا طويلة القامـة لكن دون عيب، وطـول الجيد جمال للمرأة لا عيـب، ونحافتي لم تَهضِـم معالم أنوثتي، فخصري أهيف، وليس لي ردفان، هما مسـتويان مع ظهري، وعدنان زوجي يقول عني: "هيفاء زادها الطولُ بهاءً وهزيلةٌ دون عيبٍ نجلاء" نجلاء في إشـارة إلى عيني، فقد ورِثتُ جمال عينَيْ أمي، فأنا نجلاء طويلة الرموش واسـعة المحجرين، عيبي الوحيد أني سيِّئة الذوق في اختيار اللباس والألوان والأحذية، أبدو في ملابسي كراهبةٍ قاسيةٍ.

على هامش حفل التكريم، قالت لي سلوى وهي تُسوِّي ياقتي المبعثرة: "أتعلمِينَ مَن سيعوِّضك في منصب رئيس المصلحة الثقافية...؟!" وحينما قلتُ لها أنْ لا مرشَّح لديَّ، ضحكت حتى انتبه الكل لها، وقالت وهي تلوي شفتها العليا وترفع حاجبًا: "لقد سمعتُ المدير يقول إننا لم نعد في حاجة إلى صفحة ثقافية محدودة القراء... ولن ننشر بعد اليوم شعرًا ولا قِصَّة... فهذه النصوص يكاد لا يقرؤها إلا أصحابهم وأسرهم.... سنكتفي بالأخبار الثقافية... ونعوِّض الصفحة الثقافية بصفحة تُعنَى بأنشطة مواقع التواصل الاجتماعي وتتبُّع أخبار المؤثرين والمؤثرات... وطبعًا بجرعة تحررية عالية..."!

سيعدمون هذه المصلحة التي تربَّصوا بها منذ زمن، تلك الصفحة التي نشرت لكبار الأدباء والأديبات، وغطت أكبر المهرجانات الثقافية، وفتحت نافذة يتنفَّس منها المُبدع والناقد والقارئ... كنتُ أعرف أنها مسألة وقتٍ لا غير... منذ حذفوا الملحق الثقافي وأدرجوا الموضة والعطور والماكياج وأخبار العارضات.

أنا خريجة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ثم معهد إعلام، صحافة مكتوبة، طفولتي الأولى كانت ببلدةٍ من أرياف المغرب الغارق في الفقر والتهميش، والمساحة الزمنية بين طفولتي المبكرة بقرية "تغسالين" بالأطلس المتوسط والدار البيضاء فالرباط مليئة بالخيبات وأيضًا الأفراح والمَسَّرات. تزوَّجت أستاذًا جامعيًّا، كان أول رجل يطلب يدي بعدما

تعرَّف علـيَّ في لقاء ثقافي نظمته الجامعة، وكان ضمن المُتدخِّلين وأخذت منه تصريحًا لاستكمال تغطيتي للحدث.

رزقتُ منه بطفلة وحيدة ثم جدب رحمي وجفاني نزيف الحياة الدوري مبكرًا، ابنتي "صفاء" هي الآن شابة متزوِّجة بفرنسا وتدير مع زوجها الخباز مخبزة عصريَّة في ضواحي باريس ولها طفل ذو ثلاث سنوات، سَمَّته دانيال، في محاولة لإرضاء الشرق والغرب، للتوفيق بين ثقافتين، فدانيال اسم يهودي مسيحي ولكنه اسم نبي جاء ذكره في القرآن، ويُرجَّح أن مقامه في مدينة سوسة الإيرانية مع وجود من ينكر هذا، المهم أسماء مثل سليمان ويعقوب ودانيال وياسمين وإسحاق ومريم وماريا ونادية... تخفف الخلاف عند تسمية الأبناء في الزيجات المختلطة، والحقيقة أنني لم أناقشها يومًا في ديانة زوجها، لم أجرُؤ على السؤال، ففي المغرب زيجات مختلطة لفرنسيين أسلموا واختتنوا، هذا على الأقل ما يظهر لنا.

الليلة آخر ليلة لي في عمري ما قبل الستين سنة، لا أريد أن أحيي هذه الليلة فرحًا وأنا في أعماقي حزينة خائفة...

هل سيفهمونني... أم سينصبون لي منصة إعدام علني...؟!

ألوذ بشقَّتي وكرسي الهزاز، وأنتظر الحدث الزمني وحدي بلا صخب ولا زيف، وأتجاهل ما في داخلي من أصداء صليل الخناجر والسيوف ورائحة بارود المدافع المُصوَّبة جهتي الليلة، بعض الحروب.... الانتصار فيها مجرد عدم خوضها.

يـرنُّ جرس الهاتـف رنينًا قويًّا حادًّا من جديـد بعدما غفا لحظة، يكاد يهـوي أرضًـا من على المنضـدة جراء الاهتـزاز بقوَّة جرسـه، أو ربما يخيَّل إليَّ ذلـك، عربدة هذا الهاتف القوي الصلب تعجبني ولا تزعجني خلافًا لغـيري، عدا زوجي عدنـان الذي أَلِفَ ما أَلِفْتُ وغدت قوة رنين الهاتف لا تثير أعصابَه، وهذا لم يتأتَّ بسهولة، بل تطلَّب زمنًا من الشدِّ والجذب والجدال حدَّ الخصام، صراعات صاخبة وأخرى صامتة، فأذعن لرغبتي لما أدرك أن هذا الهاتف ليس مجرد هاتف عندي، بل ولسبب ما أستمدُّ منه قوَّة غريبة ويشعرني بالأمان...

في شرفتـي الضيِّقـة القصـير حاجزهـا الإسـمنتي الـذي يعلـوه واقٍ أجوف حديدي رفيع مُشـبَّك ومُشـكَّل تشـكيلات أندلسية، ينساب بين تشـكيلاته وزخرفته لبـلابٌ عنيد يقاوم كل الظـروف المناخية للصمود، ولا هَـمَّ لـه غـير الرقي والبحـث بإصرار عـن ممـرات يَعلَق بهـا انعطافًا والتـواءً في زحفـه اللحـوح، لا يقهـره لا صهـد ولا صر، أعتكـف عـلى ديدني بعد العشـاء بسـلامٍ روحي غريب على كرسي هزاز محشـو بالقطن ومغلف بثوب سـميك أزرق داكن مزيَّن بأشكال هندسية مختلفة تشرئبُّ مـن زواياها أزهار مختلفة الألوان، هو كرسي أصيل ذو إطار سـميك من خشب البلوط شـكَّل تشكيلات مشبكَّة تعكس مهارة مدهشة في النقش والنحت على الخشب....

أجلس لساعات حتى يعود عدنان فأشدّ أَزْرَه وأسنده وهو ثمل، فهو

قلَّما يطلب أكلًا، إذ سرعان ما يغفو على سريره قبل أن يغيِّر ملابسه، وأحيانًا يغلبه القيء، فيُفرغ ما في أحشائه وهو يزحر ويئنُّ قبل أن يغيب عمَّا حاوله.

أقفل عائدةً إلى الشُّرفة مَهربي الوحيد، أبدِّد فيها ما علق بعقلي وبقي في روحي من مشهد زوجي وهو يعصر بطنه ليفرغ ما غدا يسبب له غثيانًا قويًّا وفُواقًا مؤلمًا ودوارًا لا يُحتمَل!!

ليلة اليوم مظلمة وحزينة، رغم محاولة عُرجون قمرٍ أن يَظهر من وراء الغيم الكثيف، هيمن فيها ضباب ثقيل يُعيق الرؤية، ويُبلل بنعومةٍ الأسطحَ، بارد يسبح بتُؤَدة وروِيَّة كراهبٍ مُثقَل بالصلوات من أعماق الهملايا، ضباب تبدو فيه الكائنات كمسوخٍ مخيفةٍ، وحدي مع نفسي أنتشي ببهاء هذه المفارقات في الطبيعة، فالوحدة ليست صمتًا ولا شللًا ولا صخبًا وعللًا، الوحدة حياة موازية لها طقوس مرتجلة وأخرى متواترة، لها خرائطها وضجيجها، وصمتها صخب غير مرئي... أحيانًا كثيرةً أجدني بجاذبيَّة يمِّ الخاطر في أقصى منطقةٍ من الشرود الذهني، فأحاول الهروبَ والإفلات من جحيم الذكريات، ناقلةً بصري الحسير بين الفضاء الخارجي الذي غدا كالسديم وشقَّت فيه الرؤية وتمييز الأشياء والأحياء، خارجٌ بلا طعم للحياة يلفُّ الصمتُ ما علا من الإسمنت وأشجارٍ نمَتْ قسرًا، الصمت الجاثم على الحيِّ لا يَشقُّه غيرُ فحيح الرياح الباردة التي تهبُّ متقطعة وتفترُ بين لحظةٍ وأخرى، وتعاود الهبوب زارعةً الرهبة والتوجُّس.

أجلس هنا لساعات وساعات، وحدَها البرودة حين تشتدُّ تجعلني ألِجُ الصالةَ حيث أتمدَّد على أريكةٍ وأسْرَح بعقلي وخاطري بين محطات بعيدة في طفولتي، وكثيرًا ما أتوقَّف لأستعيد حياة عملي، فحياتي المهنية لم تكن مُغرية الذكريات، لكن يصعب القفز عليها، ومهما وصفَها البعضُ بمهنة المتاعب، فالحقيقة أنها مهنة الأحقاد والفخاخ والمكائد...!

كنت أتابع كل سَنة في الجريدة ترقيات في المسؤولية لا مُبرِّر لها غير الولاء والتكتُّل والتحامل ضد مَن لا يرضى عنه المدير المسؤول، حدَّ القطيعة... فلا يمكنك أن تكون صديقًا لمن غضب عنه المدير، والتكتلات قائمة على مصالحَ آنيَّة في جماعات تافهة لا تُضيف شيئًا غير قدرتها على التأثير على المدير، وإشعاره أن الجريدة بدونه لا مستقبلَ لها ولا حاضر، وقد أدمن بغباءٍ على جرعة يوميَّة مِن وَهْم الثناء المزيَّف، وقد أدركوا نقطة ضعفه، فهو يحب المديح والاعتداد بالنفس، فكانوا يُزيِّنون له العبث ويرفعونه مرتبة العباقرة لمجرد أنه اقترح موضوعًا تافهًا، كانوا يعرفون الطريق السهل للوصول إلى قلبه والمِحبرة التي يوقع بها الترقيات والعلاوات والسفريات، لم يكن الأمر يتطلَّب غير الولاء الأعمى الرخيص، والتمجيد وإرسال هدايا دورية لزوجته، وتثمين كل ما يَكتُب، ووصفه بالحكيم والعميق صاحب القلم المتميِّز، وهو في الحقيقة لا يجيد صياغة خبر، أتى فقط للمسؤولية من باب المال، فهو مساهم في الشركة المالكة للجريدة، ويده طويلة.

كان لـكل عُنصرٍ في الجريـدة -إلا قلَّة- خدمة خاصَّة يُقدمها للمدير، وقد عُرف عن هذا المدير خوفه الغريب من أقسام الشرطة ومقرَّات الأمن ومن السـلطة عامة!! ويُقال إنه حين كان يـمارس التدريس، اعتُقل لأيامٍ بسـبب إضرابٍ للمدرسـين، ومن حينهـا تغيَّر وركبه الخوف من أقسـام الشرطـة ومصالحها، وكان "حسـون" هو المسـؤول عن قضـاء حاجات ومآرب المدير عند الشرطة والإدارات العمومية، وحسون صحافي متميز ومختـص في قضايا الإجـرام وملفات العدالة والتطـرف، هذا التخصص أغنى دفتر عناوينه بأسـماء شخصياتٍ وازنةٍ في الأمن والسلطة، لهذا كان عنصرًا مهمًّا للمدير، إذ بإمكانه مثلًا أن يتدخَّل له كلما خرق أبناؤه قانون السـير، أو لقضايا تهم أطرافًا آخرين... وحسـون في الحقيقة طيِّب رغم أنه منبوذ من جماعة الولاء، لأنه لا يجيد تصنُّع الاحترام، وأحيانًا قد يقول رأيًا لا يُرضيهم في جلسة نبيذ، ولولا ما يقوم به للمدير لوجدوا له حُجة لطرده.

لم يُحقق حسون الطيب مكاسب تُذكر بل ظلَّ صحافيًّا مهنيًّا، يصفونه بالأحمق علاوةً على لقب القِرد حتى يُضعِفوه، فقد كان هذا هو أسلوبهم، الاختلاق والافتراء والترويج والإشـاعة لاغتيـال الخصوم، وكلُّ متميِّز هـو خصمُهم، وهذا ما جعل الجريدة يومًا عن يـوم تهوي ويقلُّ قُرَّاؤها، فالأكثريـة من الصحافيـين غدت بلا طموح ولا أُفـق، فماتت فيهم روح الابتكار والبحث، وغدوا مجرَّد عاملين روتينيين، يمارسون الصحافة من مكاتبهـم، وقـد يتحايلون على تقارير المؤسسـات العموميـة، فيُحوِّلونها إلى تحقيقـات بأرقام تبهر وما غيروا غير اللغة والصياغة والاسـتهلال...

لكنهـم حقَّقـوا مكاسـب كثـيرة بمباركة كل خطـوة من خطـوات مدير تُحتـضَر جريدتـه وهو غير مهتم سـوى بالمديـح ونفخ صـدره والنظر إلى الكاتبـة الجميلـة صاحبة العجيزة المثيرة والصـدر الممتلئ. يحبُّ المدير أن يُوصف بالعبقري الفذِّ، الذي له أفضال على الصحافة المسـتقلَّة، المناضل الوطني بقلمه الذي لا يُشَق له غبار.

بعضهـم كان لا يجد غضاضةً في أن يكون قـوَّادًا له، وخادمًا لنزواته، ولا يُخيـف المدير سـوى أن تغضب عن الجريدة الجهـاتُ العليا، فقد كان جبانًا سِـكِّيرًا، يتجنَّب كل سوء فهم مع النظام والشخصيات النافذة ولا مؤسسة الأمن و لا الجيش ، يريد جرعة مرتفعة من التفتح والانفتاح حدَّ الانحلال باسـم الحداثة ومـن الكتابة العارية الشَّـبقية، فصفحة الجريدة الأخيرة اشـتهرت بتقديم صور لنسـاء شِـبه عاريات... وحين ينخفض صبيـب الإباحيَّـة... يـصرخ في صالـة النشر غاضبًـا يكاد يُمزق سـترته "ارفعوا الجرعة... نريد أخبارًا واسـتطلاعات عن المثليين والسحاقيات والفضائح... نريد أن نرصد الزلَّات الشهوانية لزعماء إسلاميين... نريد أخبـارًا عن زنا المحارم.... قضايا الاغتصاب وهتك العرض.... أخبارًا عن رجال ونسـاء متحوِّلين... يا سادة.... نحتاج إلى مزيد من الإثارة... ملفات قُضاةٍ في أسِرَّة عاهرات.... ومدرسين مغتصبين....".

ولأننـي كنت صحافيَّة مسـؤولة المصلحـة الثقافية، كنت غـير مَعنيَّة بالموضـوع، إلا حـين تُطلب مني مهمَّة خاصَّة في ظروف اسـتثنائية، فمن

حـينٍ لآخـر كان يأمرني ، نعم يأمـرني بكل ما تحمل هـذه العبارة من قهر وفـرض ولـزوم غير قابـل للنقـاش، كأن يأمـرني بكتابة مقال عـن كاتبة مغمورة وتقديمها للقراء ككاتبة متميزة، فقد اعتاد أن ينشر وَهْم الواهمات فقط لأنهن مشروع علاقة عابرة، وأحيانًا كثيرة يضغط عليَّ لتقديم كتاب أو رواية لسحاقية أو مِثلِيٍّ، وكنت أتردَّد، ليس لموقف معيَّن، بل لأني غالبًا لا أجـد قيمـةً جماليةً في كتاباتهـم، وأن هويتهم الجنسـية وحدَها لا تكفي للنشر لهم، لكن جُوقة التفاهة التي تترقَّى كل عام وتحصل على العلاوات كل شـهر، تشـيد بهـذا الخط التحريـري، وتُصفـق للرجـل، ويقولون له مُجمِعين: "أنت صحافي كبير سـابق لعصرك... أنت آتٍ من المسـتقبل... أنتَ مدرسة.." أما هو فَيَنتشي بالإطراء والمديح في الوجه، وينفخ صدره، وينظـر للكاتبة المثيرة ذات الصدر الكبير نظراتٍ خاصَّةً، كاتبة لها سـلطة ونفـوذ، فهو لا يـردُّ لها طلبًا، ولا يخيب لها رجاء، وكان يكفي الاسـتعانة بها للحصول على حظوة أو موقع أو سفر مهني... وكم توسَّطت لنشر ما لا يقبل النشر حتى على جدران المرافق العمومية...!

للأسـف الصحافة المكتوبة قلَّما تصنع نسـاءً متميـزات حاليًّا، خلاف الإذاعـة والتلفزيـون... فالخبر والتحقيق، شِـئنَا أم أَبينَـا يتطلَّبان جرعةً زائـدةً من التحرُّر، والتحـرُّر أحيانًا مُكلِّف في مجتمع ذكوري، ومثلي التي غير مسـتعدة لتقاسُـم جِعـة أو كأس نبيذ في حانةٍ للحصـول على خبر أو سـبق، تختار مجـالًا لا يتطلَّـب الركض وراء الخـبر. كصحافيَّـة في الثقافة

كنت أحافظ على كبريائي واحترامي لذاتي، في زمن يبحث المثقَّف فيه عن الصحافي ليتحدَّث عنه.

قد يضطرُّ عقلي للتوقُّف رغماً عنه وأنا أستدعي محطات من الماضي عند وقائع مؤلمة وأخرى مبهَمة، حضورها يَنكَأ الجراح ويُنعش الآلام القديمة، فالألم لا يُنسَى، قد تندمل الجراح، لكنَّ ندوبها تظل طريَّة في مكانٍ ما في مدننا الداخلية، ندوب تظلُّ فينا فاعلةً بصمتٍ مهما ظننا أنها مجرد بقايا متهالكة لخيبات وانكسارات تلاشت وغدت من الماضي، الألم هو ذاك المسخ الذي يخرج في أحلامنا من قشرة اللاوعي ليعصرنا ويجعلنا نصحو ونحن في رُعب نتفصَّد عرقًا ونرتجف... مثله مثل الحرمان... الحرمان لا بد أن يجد تعويضًا في أساطير النفس، فيبحث عن التحقُّق والشبع، وأحيانًا في صور مخيفة ولا أخلاقية... الحرمان يظل متربصًا في دواخلنا حتى يأتينا في مشاهد سريالية، لكنه يحقق شهوته التي تتوارى وراء الوعي منتظرًا...

أستحضر ذاك الوغد... ذاك الصحافي المغرور الذي غدا رئيسًا للتحرير وهو لا يجيد غير إعادة صياغة أخبار الصحافة الدولية في مجال سياسي يُغدق عليه منه غوغل دون حساب، والوكالات الدولية. وغدًا بمعنى الكلمة لأنه تافه، خصمًا لكل تميُّز، حسودًا تتقطر عيناه كراهية حتى تظن أنه مستعدٌّ لقتلك افتراسًا، عيناه تفضحانه، لا تستطيعان أن تخفيا نفسيَّة مضطربة حقودة خبيثة.

أسترجع بغيظ في خلدي نظرات ذاك الوغد من وراء نظارتين سميكتين، كان كلما مررت بجانبه، حلَّ زِرَّين من قميصه جهة النحر وطفق يداعب شعر صدره، ويدور نصف دورة على الكرسي المحوري وهو يُمرِّر لسانه على شفته العليا، وكان يستفزُّ ذكائي حين يتحدث عن تاريخه النضالي، الذي لا يتعدَّى زمنًا قصيرًا قضاه في منظمة يسارية، يدخن الحشيش ويشرب النبيذ الرخيص، وليس مستبعدًا أنه كان مخبرًا في منظمة طلابية، فقد انتهى به المطاف مخبرًا للمدير، وليس صدفةً أن يكون كذلك، فمن البشر مَن يجد متعة لا توصف في العبودية والتجسُّس وتقديم خدمات قذرة دون أن يُطلب منه ذلك، والوغد ورث من زمن اليسار لسانًا قادرًا على الدفاع عن المتناقضات، وإدمانًا على الحشيش، ومكرًا خبيثًا، وعلمانيَّةً ممسوخةً وظَّفها لتبرير انحرافاته وشَبَقه ونزواته، كان ينتشي بفشل الزملاء والزميلات ولا يتوقَّف عن الإيقاع بينهم وفي الوقت نفسه يقدِّم الولاء العاري لمدير الجريدة ويخدمه ولو في أغراض دَنيئة.

تذكرتُ هذا الوغد الذي أصبح يظهر في التلفزيون لأنه له صديق نافذ في هذه القناة يعدُّ برنامجًا تافهًا بلا معنى، يُقدِّمه كمحلِّل، وحين ينتهيان يعرجان على أقرب حانةٍ، ولا بد أن تكون حانةً ممتلئةً ببائعات الهوى، تذكرتُه لأنه في يومٍ من الأيام حضرت شابَّة إلى الجريدة تريدنا أن ننشر مشكلةً لها، فأحالها المدير عليَّ، لأن سلوى مسؤولة صفحة المرأة كانت في مهمَّة ميدانية تغطي اعتصام عاملات معملٍ للنسيج، جِئنَ للعمل

فوجدن المعملَ قد أُغلق وربُّ العمل غادر أرض الوطن، وتبيَّن أنه باع الآليات والمعدات ليلًا، وللأسف العقار لم يكن إلا مُكترًى، والأجنبي رحل بعدما ضاق ذرعًا ، كما يقول أصحابه ، بكثرة المَطالب والإضرابات من أجل المساواة مع العمّال الرجال في الأجور وساعات العمل والعُطَل!

لم أتمكَّن من سماع قصة هذه الشابة الزائرة، لأنها ارتبكت واضطربت حين رأت ذاك الصحافي سليل سنة من اليسار الذي يفكُّ أزرار قميصه ويداعب شعر صدره، قالت الشابة مرتبكة: " هل... يوسف يشتغل هنا...؟" قلت لها: "نعم... هل تعرفينه...؟!" انتصبَتْ واقفةً وهمَّت بالرحيل مضطربةً خائفةً، فتبعتُها حتى الدرج وتوسَّلت إليها أن تشرح لي سبب خوفها، وبعد أن اطمأنت إليَّ قالت: "يوسف هذا... الكلب.. الذي يظهر في التلفاز سِكِّير مُدمن وغد... فاجر... وأنا عاهرة من عاهرات حانة "الشبح" وهي حانة بفندق، الوغد يختار مَن يشاء من الفتيات ويضاجعهن بلا مقابل ويضرب المتمرِّدة منهن... ولا واحدة ردَّتْه.... لأن صاحب الحانة يعدُّه زبونًا مهمًّا يُجنِّبه مداهمات الشرطة.... إنه وغد... يكره النساء... لا تقولي شيئًا نجوى... فقد سبق أن صفعني أكثر من مرة..."!!

علمتُ الآن لماذا يُدافع دفاعًا شديدًا عن أجهزة الأمن والدولة عامَّة، فالرجل لا خيار له، وربما يظنُّ أن له ملفاتٍ وصورًا إباحية عندهم... ويتقي استفزازهم بمجاملتهم تغطيةً وتزكيةً.

وأذكـر أنه قام معي بفِعلته العَفِنة، فحين حاول مداعبةَ شـعر صدره، انحنيتُ وهمسـتُ في أذنه: "أما زلتَ تضربُ عاهرات فندق "الشـبح" يا مناضـل...؟!" بُهِـت الرجل وحملق في طويلًا بخبث ثم أطرق رأسـه ولم يفتـح الأزرار العلويـة لقميصه بعد ذاك اليـوم، والغريب أنه صار ودودًا يمدح كلَّ ما أكتب.

فقط مثل هذه المواقف في مجال عملي مؤلِمة...هي ما تحضرني، وتفرض نفسـها عليَّ... مثل حكاية هذا الوغد الذي يظهـر في التلفزة متحدثًا عن المساواة والديمقراطية وحقوق المرأة والحريات الفردية وتخليق السياسة ..

مَـن يريد التواصـل معي في هذه اللحظة الزمنيـة الفاصلة الفارقة من عمري...؟!

فـما هـي إلا لحظات حتـى ينتصف الليـل، وأخطو نحـو العام الأول بعد الستين من عمري، وكلما خطت عقارب الساعة نحو العناق الحارق هذه الليلة، يزداد اضطرابي وأشـعر بخوفٍ غريبٍ لا أستطيع تبريره، هل أخاف من الشيخوخة...؟!

٢

الرقم ستة في رحلة العمر مخيف ومُربك، بالنسبة لي كنت أظن أن العبور سيكون عاديًّا وسلِسًا كأيٍّ سنة من السنوات الأخرى، كنت أقنع نفسي منذ بدأتُ أدنو منه أن الزمن هو الزمن، وأن الإحالة على المعاش مجرَّد إجراء إداري لا قيمةَ له أمام عنفوان الروح وحيوية القلب وقدرتنا على الاستمرار في الحلم، ومواعيدنا السنوية مع منتصف الليل يوم عيد الميلاد مجرَّد وقفة زمنية لا غيرَ، بل هو منتصف الليل نفسه منذ الأزل، نحن فقط مَن نُسقط عليه معانيَ متعدِّدة، ونَحُفُّه بطقوس غريبة، لكن يبدو أنني في هذه الليلة خائفة مضطربة، كأني أريد أن أستأخر منتصف الليل وأتمتع بمزيد من الوقت قبل أن أغلق قوس الرقم خمسة من عمري.

لقد أعددتُ وتهيأتُ لهذه الليلة منذ سنتين، فحينما صرتُ أرى الستين عامًا على بِضع خطوات زمنية، طافت بي الهواجس، وتغيَّرت فجأة نظرتي للوجود والأشياء والكائنات والعلاقات، فأنا أخشى الفراغ، أخشى أن أصبح بلا فائدة، مجرَّد امرأة تتنظر كل يوم أن يسحب زمنها في صمت بلا حلم ولا تَوقٍ، بلا حرارةٍ ولا شوقٍ ولا غدٍ مُغاير، بلا مفاجآت ولا حتى الخيبات غير المتوقعة.

حتمًا ستتغيَّر حياتي، وإيقاع أيامي، فحول عملي كانت تدور حياتي واهتماماتي، كانت الجريدة مركزَ الكون، منها أنطلق وعندها أتوقف لترتيب انشغالاتي.

وتجنُّبًا للخوف العابر في الروح باسم الفرح، عطلت منذ سنتين كل احتفال بعيد الميلاد، وتوقفتُ على الرد عن التهاني التي هي قناع للعزاء، ولمحت أنني لم أعد مهتمَّة بالأمر وأفضِّل ألا يسم هذا اليومَ أيُّ طابعٍ خاصٍّ، وأن يمرَّ كباقي الأيام، كيلا أشعر بقسوة هذه الليلة.

تتملكني رهبة عارمةٌ، إن زعمتُ أن هذا الانتقال في الزمن لا يؤلم فلن أُصدِّق حتى نفسي، فالليلة برودتها أشدُّ وطأةً، وظلال الستائر أكثر وحشةً، والصمت مخيف مهيب، وأخشى أن أشغل التلفاز فأرى تفاصيل حياةٍ هربت مني، ووجوهًا تطفح بالحياة والعنفوان، تُعري خوفي العميق من أن تطرق الشيخوخة باب روحي وأنا لست مستعدَّة بعدُ.

سرَتْ برودة في جسدي، فصرت أنتفض بين الفينة والأخرى ارتجافًا، كان بودي أن أشغل المُكيِّف في هذه الليلة الباردة من فصل الشتاء الذي ضنَّ بمطره وجاد بدون حساب بقُرِّه ورياحه الباردة التي لا تجد مُزنًا تلقحه وتعصره علَّه ينهمر مطرًا يخفف وطأة الصر، ويروِّض جموح الرياح العقيمة التي ترسل صفيرًا مخيفًا كلما عبر الشقوق والصدوع وشقوق الجدران والأسوار والتجاويف.

المكيف يجفف حلقي سريعًا ويسبب لي جروحًا دقيقة في حنجرتي، لهذا الأطباء نصحوني بعدم تشغيله والاكتفاء بالتدفئة بالحطب أو الفحم أو الغاز، ولأنني صحافيَّة غطيت أكثر من مرةٍ مآسيَ وفيات سببها التدفئة بالفحم والغاز، صرت أخاف من هذا النوع من التدفئة، وإن كنتُ قادرة

على تجنُّب الموت بسوء استعمال الغاز والفهم، لكن صور الموتى وهم في أسِرَّتهم وبين ذويهم ما زالت عالقةً بعقلي، واستحضارها يُرعبني...!!

لم أفكِّر بالموت إلا مؤخرًا، كنت أراه في وجه موتى لا أعرفهم إلا على الورق، في تقارير أو أخبار مقتضبة أو نعي أو حتى تغطيات لفواجع مؤلمة، وكان بالنسبة لي فاجعةً لأهل وأقارب الراحلين، الموت يُخلِّف أضرارًا يصعب أحيانًا تجاوزها للأحياء لا للموتى، كنت أرى الأضرار الكبرى في بيوت الأرامل والأمهات، كل حزين يدبِّر قسوة الموت وعُمق أسئلته بما يملك من عقائد وتصورات، لكن لمستُ وطأة الموت أشدَّ فتكًا على العالقين بين السماء والأرض، في قلوب المترددين، في صدور التائهين، وفي نفوس المزيفين، قسوة الموت أعمق في نفوس الأحياء حين يختطف من بينهم فجأةً وبدون سابق إنذار عزيزًا أو مُعيلًا، ولمحتُه مجرَّد تلاشٍ كالبخار في أفكار الكثيرين، أما أنا فقد كنت أراه قاسيًا حينما يضرب فجأةً على الطرقات أو في حوادث مؤلمة، ومن كثرة القتلى حولي في الحروب، صار عاديًّا، هذا ما اعتقدتُه، لكن لا أحد يُطبّع مع الموت حتى ولو كان طبيبَ تشريحٍ أو حفارَ قبور، رؤية الجثث المتعفنة غدت طبيعيَّة من كثرة التكرار عند الناس، ولا تثير أي شعور عند آخرين، لكن الموت مصيبة مهما أشحنا وجوهنا عنه!

غدوت أراه من زاوية أخرى، بطريقة غريبة، أحاول أن أتخيَّل الاحتضار، وكيف نشعر ونحن نُسلِم أرواحَنا، هل نتألَّم...؟! هل

نختنق...؟! هل نتمتع بفرصة الرحيل دون ألمٍ بغيبوبة تُعطِّل الجوارح والشعور...؟!

هل الغيبوبة قبل الرحيل هِبة ونعمة...؟! صعب جدًّا أن نظل في كامل وعينا والموت يعصرنا عصرًا ويسلُّ الحياة منا في رحلةٍ حتمًا مؤلمة... صعب... ومؤلم جدًّا... أن نظل نسمع ونرى ونحن نجود بآخر الأنفاس.

لقد ابتدعنا كثيرًا من الأساطير للهروب من المواقف المؤلمة، بل لتسمية الأشياء بغير أسمائها، أساطير نُخفف بها أهوال الواقع وحقائق الحياة المُرَّة المرعبة... حتى الاستعارات أحيانًا تغدو بيتًا من كلمات يَستُر خوفنا... وجَعَنا... عُرينا... نزواتنا... شَبَقنا... ضعفَنا.

زميلتي وصديقتي سلوى الأصغر مني بخمسة عشر عامًا، لم تستطع أن تداري استغرابها بل قلقها مؤخرًا من أسئلتي المتناسلة حول الموت وأجوائه، قالت لي يومًا مرتبكة، وقد تلبَّد وجهها بقلق عاتم وجحظت عيناها: "يا ويلي...! تتحدثين كأنكِ مصابة بمرضٍ لا شفاء منه... هل من شيء لا أعرفه يا نجوى..؟!! تكلمي... لقد أخافني حديثك عن الموت بهذه الطريقة..."!!

ولأنها صديقتي من عالم ضاقت فيه معارفي، وأجد فيها الدفء والوفاء، ولأنها حينما حلَّت بالجريدة متدربةً، اختارت كنفي، وجنحت لمعسكري، وهي ضعيفة بلا أتباع، مَهيضَة الجناح، وهذا لا أنساه،

سحبتها ذاك اليوم إلى حضني بحنوٍّ وهمست في أذنها: "لا تخافي...! لستُ مريضة إلا بما تعلمين من عِلَلي، ألم خفيف في المفاصل أروضه إلى حينٍ بالكورتيزون.. لا تخافي...! هي مجرَّد أسئلة تجول في خاطري مؤخرًا... ربما التقدُّم في السن... ربما الخوف من شيخوخة تستدعي الموت بغتة... ". وكعادتها ترسل ضحكة ذات طعم غجري مُنفلِت، وتقول بثقة: "يا عزيزتي...! ما زلت مثيرة.. جميلة... الموت له معايير متعددة غير السن... الموت يخبط خبط عشواء... الموت واحد إن تعدَّدت الأسباب..."!

أُحدِّق في الساعة الواجمة على الجدار، تتناغم دقَّاتُها ودقات قلبي بشكل لافت وغريب، وإني لأكاد أسمع طرقًا كقرع الطبول في أذني يغطي على كل صوت ويعلو بشكل غريب متواتر، حتى خشيت من أزمة قلبية، ضاقت نفسي بمجرد التفكير فيها... خِلتُ نفسي سيُغمَى عليَّ لا محالة، فوهِنَت ساقاي، واستسلمت والجسد يدفع بالعرق دفعًا غزيرًا كأن نارًا تضطرم استعارًا خفيًّا في أضلعي، وما هي إلا لحظة حتى تلاشَى قرع الطبول، وانتظمت دقات قلبي، وتوقف جسدي عن الرشح بالعرق البارد.

أنتفض من جديد من برودة هذه الليلة اللعينة، على مُواء حادٍّ لِقطٍّ خائف حتمًا، يصل إلى سمعي هرير كلبٍ ربما حشر القط الهارب في زاوية مظلمة على السلم.

قط أسود على حاجز الشُّرفة، يخطو بدون خوفٍ أو ريب على بساط

الصالـة، يتوقف حينًا ليفرك جلده بمؤخـرة قامته، ثم ينهمك في تنظيف جسمه بلسانه بطريقةٍ منتظمةٍ.

انتفضـتُ جزعًا، أصرخ صرخةً أقمعها بكفِّي، لم يُخفني الحيوان بقدر مـا انتفضتُ للبغتـة، أما هذا القط المُسـالم فقد اكتفى برفع رأسـه والنظر إليَّ مليًّا، ثم خطا بثقة يستكشـف بأنفه أركان الشـقة في زيارة استعراضية دشـنها بالمطبخ، ثم طفق يشـم الزوايـا والأركان والرفـوف والخزانات، وحين انتهى بدأ يتمسَّح على الأرائك والكراسي.

أنـا لا أخـاف القطط كـما قلتُ، ولكـن فاجأتني قفزتُـه المباغتة، وهو يخطـو وئيدًا نحو المطبخ، عـاد ليُراقب ردَّ فعلي وسـلوكي، غريزتُه ألهمته أنـه مُرحَّب به، وألَّا خوف عليه من امرأة يُسـعدها أن يكون معها وجودٌ حـيٌّ في هـذه الليلة البرداء، يوزع نظره هنا وهناك، يلعق جسـدَه بشـدة، كأنـه يخفِّـف ألمًا ما، ثم يُحـدِّق مرةً ثانيةً في مليًّا، يتجـاسر بلا خوفٍ، يدنو مني ويطفق يتمسَّـح بي، أُربِّت على جسـده، يدور دورةً غريبةً حولي، ثم دورات رافعًـا ذيله، يتمسَّـح بي مـن جديد بقوة، يموء مـواءً واهِنًا، أُمرِّر أصابعي بحنان على رأسـه، يُحرك عاليًا ذيلَـه، لا بد أنه القط الذي طارده قبل قليل كلبٌ شرس، هو اطمأن الآن ولان وسكن، غريزة النجاة تدفعه دفعًـا ليندس بين الأثاث وفي الزوايا الخفية، ثم يتجاسر مع مرور الوقت لقفـز مطمئنا يغرز مخالبه في جـوف مخدةٍ من صوفٍ مرارًا وتكرارًا، أتركه يفعل، المشهد يُشعرني بمتعة تسري في عروقي، كم تمنيت أن أمزِّقها بقوة،

يتمطَّى ثم يمُوء مُواءَ المُقدِمِ على الغفوة مع فتح كفيه بشـدَّة، أكاد أسـمع له خرخرةً غريبة، فحَوْل القطط السـوداء أساطير كثيرة، أما أنا فقد كنت في حاجـة إلى وجـود ما يخفف وحشـة الليلـة، غفَا القـط ولم يطعم قطعة الدجـاج التي وضعتها له، يبدو أنه في حاجة إلى النوم، حاجة قوية غلبت كلَّ جوع فيه ممكن...!!

يبدو أنه القط الأسود الذي طُورد حتى التعب حيث أنهكَتْه مطاردات كلاب متشردة أو الكلب الهجين الشرس الذي يملكه ذاك الأعرابي الفظُّ حارس الإقامة جلول.

تتكـوَّن الإقامـة التي تقع بحـي الليمـون الراقي بمدينـة الرباط، من خمس عمارات ومسبَحيْن وغرفة للحارس عند مدخلها، تتوسَّطها حديقة شاسـعة مختلفة الأزهـار والورود والنباتـات، وأحواض يعبـق فيها ليلا النسـيم والريحان، وتعشِّش أشـجارَها طيور مختلفة، تزين وسطها نافورة مـن مرمـر و زليج، وفي جانبها الشرقي انتصب مقـرٌّ بمكتبين لممثلي اتحاد المُلَّاك حيث يلتقي المُلَّاك للتداول في مصالح الإقامة.

تتوزَّع على الأرصفة أيضًا أشجار الصنوبر والسنديان والأرز والنخيل وأحواض لمغروسات متنوِّعة كالأزهار والورود والنباتات ذات الروائح الزكية، يقوم على شـأنها بستانيٌّ يؤدِّي عملَه بتفانٍ وحزم، لكنه يظلُّ يلعن اليـوم الذي أتى فيه للدنيا، إذ يراقبه الحـاج رضوان عن كثب كظِلِّه وهو رئيـس اتحاد المُلَّاك فيظلُّ لصيقًا به، يوجِّهه ويوبِّخه وينهره حدَّ القسـوة،

وهو شيخ متقاعد لا شغلَ له غير تجديد الوضوء والصلاة في الأوقات بالمسجد ومراقبة البستاني والحراس وعمال النظافة والغرباء والتجار الجائلين، يكرهه البعض من السكان خصوصًا الذين يتأخَّرون عن أداء الواجب الشهري، الأطفال المشاغبون والشباب الذين يمنعهم من التجمعات وأمور أخرى. وكانت الشابة الأرملة تُغدِق عليه من طعام شهي وهدايا متنوعة، فكان يغضُّ الطرف عن زيارات الحارس "جلول" الليلية لها، وهو يعلم بالتأكيد، فهو أول من يصحو وآخر من ينام.

وقد استغربتُ في البداية كيف ارتقَى القط حتى وصل شرفتي في الطابق الأول، لكنه كأنه فطِنَ لانشغالي، وعاد للشُّرفة، فقد تسلق الميزاب ونزل بهدوء، وعاد الكلب الشرس يحاصره وقد تكوَّر بشكل غريب، بينما طفقتُ أنا أُلوِّح بيدي للكلب وأصيح، وقد ازداد ضراوةً وعلا نُباحه، فما كان من القط الأسود إلا أن تسلَّق شجرةً قريبةً من الشرفة وقفز على حاجزها... جاء مستجيرًا طلبًا للأمان لا للطعام من جديد، وهذا حظِّي الليلةَ... قدمتُ له الطعام فأنِفَه.... الخوف يُغلِق كل منافذ المُتَع، بما فيها شهية الطعام... مع الخوف ننسَى جوعنا وعطشنا... الخوف آلة مدمِّرة... الخوف يصنع الوحوش كما قد يصنع الجوعُ كائناتٍ ضاريةً عمياءَ...!

يشتدُّ البرد... والكلب الشرس تحت الشرفة ينبح... القط الذي استجارَ بي أصبح جزءًا من هذه الليلة الموحشة... إنه يراوغ التحف

والأواني حتى لا يُسقِطها وترك كل مكان دافئ بالشقة، ونام قرب سريري على سجاد صغير... كان نحيفًا مقارنةً بطوله... أهو الجوع والقهر أم هكذا هو.... مثلي... نحيفة طويلة... حتى سُمِّيت بالزرافة.... لكني الزرافة الجميلة...؟!!

ربما نحافتي وقلَّة لحم جسدي تُيسِّران للبرد اختراق جلدي والنفاذَ إلى عظامي، هذا ما يُردِّده زوجي عدنان كلما اشتكيتُ البرد وأثرَه الشديد عليَّ: "لا شحم ولا دهون... فمن أين لكِ وقودُ الجسد ليَدفأ..."!! نحافتي خِلقيَّة لا علاقة لها بحِميَة ولا نظام غذائي، فأنا امرأة مهما أكلتُ وطَعِمت لا يتغيَّر وزني، وأبدو شاحبةً بارزة عظام الوجنتَيْن والجبين، لكنَّ نحافتي كما تقول سلوى إن نحافتي تزيدني جمالًا، وكانت معجبةً بكثافة شعري، وكم تمنَّتْ لو كان لها أنف صغير رقيق كأنفي، فأنفها بارز واسع المنفذين لكنه مقبولٌ في وجه امرأة بضَّة ممتلئة الجسم كثَّة الحاجبين ممتلئة العجيزة، مجعَّدة الشعر القصير.

يعاود الهاتف الرنين... عقربا الساعة الكئيبة المعلقة على الجدار يخطوان نحو منتصف الليل، أحدهما يُسابق الساعةَ ليشاركني لحظةً عبثيَّة بتهنئةٍ نمطيَّة محنَّطة... هي ابنتي صفاء حتمًا...

فمَن يتصل الآن إلا بدافع الواجب لا غير...؟!! وهذا الحافز في العلاقات الأسرية قاتل ويؤلم الأقارب ولا سيما الوالدين...!

وأنـا أؤمـن يقينًا أن هناك واجبًا يُحفز مثل هـذا التواصل الروتيني، لا رغبـة متجذِّرة في الروح والوجـدان... ولا عاطفة طافحـة تُفتت الصبر على الانتظار... واجب لا غير، لا عاطفة القرابة البهية...

الواجـب لا يصنع الفـرح، فقد يُبدد سـوء التفاهم ويؤجِّـل القطيعة الحتمية... الواجب قد يمنع الشرَّ، ولكنه لا يصنع الفضيلة.

أحيانًـا يتصلـون بي لأنهـم يجب أن يتصلـوا، لا لأنهم يريـدون ذلك، ولـولا الملامة لقطعوا الأرحام، وفي أحسـن الأحـوال تدفعهم بقية إيمان خفي إلى صلة الأرحام...

زوجـي عدنـان لا يُعِـير الأمر اهتمامًا، هـذا ما يبدو عليـه على الأقل، فحين لا تتصل ابنتنا ويشـعر بحُزني يقـول في محاولة منه للتخفيف عني: "يـا نجـوى...! ما من أحد عاش في أوروبا إلا غيَّرته وبدَّلت قِيَمه، إنه ليس عقوقًا ولا انفصالًا... فقط أبناؤنا تجرفهم دهشة الغرب... والغرب قوَّة جارفة بقِيَمه وضوضائه.. لا أحد يصمد في النهاية... حتى العائدون يكتئبون أو يتيهون"!!

أعلـم أن زوجي عدنـان يُدبِّر الأزمات النفسـية بالتجاهـل والْتماس الأعـذار، لكنـه رغم ذلك حـين تأخذُه خطواتـه إلى غرفة صفـاء، يُطيل المكـوث فيهـا، ثم يدلـف خارجًا منهـا والحـزن يُخيِّم عـلى نظراته، وكل خطـوة منه تصير ثقيلةً كأنه يحمل ثقلًا لا يُطـاق على كتفيه، كلانا وحيدٌ، لكـن كلًّا منـا يهرب من النظر في عينَيِ الآخر، هو حتمًا يعصره الندم، فأنا

أعرفه، فهو ضعيف أمام الحسرة، وأنا ألوذ بكبريائي وأظهِر له أن لا شيء وقع وغيَّر مجرى حياتنا..

أتجاهل عدةَ أمور كي تستمرَّ الحياة ولا أسأل، فمن الأسئلة ما ينكأ الجراح ويُعمق الخيبات مهما كانت طيبة النوايا، تروم المواساة والعزاء، فالصمت في حالات كثيرة أحسن عزاء...!

كان يخيفني عدنان حين يطيل البقاء في غرفة ابنتنا صفاء بعدما تفجَّر جسدُها أنوثة، فقد أخذت مني أنوثتي الطافحة وصدري النافر، حتى إنني كنت أرهف السمع لألتقط أي همس، فقد كانت تنام بطريقة غريبة على ظهرها وتكشف جزءًا من جسمها الأزهر الشفَّاف، لم أجرؤ يومًا على سؤاله عما يجعله يطيل البقاء في غرفتها، ذات ليلة لم أتمالك نفسي فهرعت إلى الغرفة، وجدتُ رأسها على حضنه وهو يقرأ لها جزءًا من حكاية، كنت مستعدَّة لأخنقه... لأقتله... لأهشِّم رأسه بهاتفي الثقيل... حملقَا في وجهي معًا باستغراب، ونبس بعدما سوى نظاراته: "اذهبي يا نجوى.... سألحق بك بعد قليل..."! وبطفولية وشغب شدَّت منكبه وقالت ابنتي بنبرة الشاكية: "دعي بابا ينام معي الليلة يا ماما..."!

تلك الليلة نام في غرفتها، ونما في عقلي شك قاتل، لم أجرؤ على تقاسُمه مع أحد، وازداد شكي أن علاقاتهما خفتت ولم تعد بذاك الشغف، فلم تعد تسأل عنه عبر الهاتف، كأن سرًّا كُشف لا أعلمه، أو ربما وعَتْ بعد سنين أنها كانت ضحيَّة نزوات عدنان... وهل يفعلها..؟! لا أملك اليقين.... لا جواب...!

صفاء ابنتي لغزٌ محيِّر منذ بلغت العشرين ربيعًا، تغيَّرت بشكل لافت، فرغم انفجار أنوثتها باكرًا في ربيعها الثالث عشر، وبروز مفاتنها بشكل صارخ، أكسباها طولي دون نحافتي، وعينَـيْ أبيها الواسعتين الطويلة الأشفار، كانت شغوفةً بحِكمة، عفوية بجرعات، منطلقة بمسؤولية، متحرِّرة لكن بإباء وكبرياء وحياء، غير أنها لم تعد عفوية ولا تلك الطفلة المنطلقة، شيء ما شرخ روحها منذ ليلةِ سفرها إلى فرنسا. غادرت بالكنزة البهية الجميلة وسروال "دجين" وحذاء متوسط علو الكعب، وأقمصة قصيرة الأكمام وملابس عصرية، فتحوَّلت إلى شابة أخرى، ملابسها فضفاضة تغطي شعرها. لم أسألها أبدًا عن السبب، فهذا اختيارها، لكني كنت أراها قبلُ أكثرَ براءةً من الآن، أجمل في عفويتها، خلافًا لعدنان حينما رأى صورها الجديدة قال وهو يقهقه: "أرأيت كم زادها هذا اللباس المحتشم جمالًا وهيبة... ها نحن نغيِّر فرنسا وليست هي التي تُغيِّرنا... وعلمانيتها نغيرها..."!!

يومذاك صرختُ في وجهه غيظًا وحنقًا حتى انتفض: "يا علماني.... أنسيت أنك اشتراكي المرجعية..."؟!!

ابتسم بكل بساطةٍ وقال وهو يزدرد الإسباجيتي: "وأنت تخلطين بين الاشتراكية والتحرُّر والانحلال، في زمن الاتحاد السوفياتي، أتعلمين أنه كان ممكن أن يدعو الروسي صديقًا له لشرب الفودكا في بيته وتسقيه زوجته، لكن لو نظر إليها نظرةً زائغة يُرديه بالكلاشينكوف؟ فالعلمانية

هي عدم حكم الناس باسم الدين... والناسُ خُلقًا ولباسًا وحياةً عامة على أعرافهم وقِيَمهم وما اتَّفق عليه المجتمع.... فاللباس شأنٌ فردي في حدود ما يقبله المجتمع... واللباس يتطوَّر ويتغيَّر حسب الأذواق وزاوية رؤية الانفتاح... هناك سوء فهم خطير بين التحرر والانحلال... بين العلمانية كرؤية في الحكم والسياسية وبين قِيَم المجتمعات والجماعات العِرقية والدينية"!

كنت أظنُّه أولَ مَن سيغضب من هذا التحول في حياة صفاء، وهو المعتقَل السابق في حركة "إلى الأمام" الماركسية المغربية، ورغم تفكُّك هذه الحركة وتفرُّغه للتدريس والكتابة ومراجعته لأفكاره باعتماد الإصلاح السياسي من الداخل، وتَخلِّيه عن فكرة الجمهورية مقابل مَلَكية دستورية تخطو بالتوافق مع المكونات السياسية نحو مَلَكية برلمانية، فقد كنت أسأله بعد خروجه من المعتقل عن المسار، فيقول بأسى: "ربما خسرنا الوقت في صراع كلَّفنا الكثير، المَلَكية في المغرب تليدة ولها جذور دينية، ومن الصعب جمع كل المُفارقات والفسيفساء العِرقية والسياسية بالمغرب بنظام جمهوري انتخابي... علينا أن نوظِّف المَلَكية ونطوِّرها ونجعلها فاعلًا سياسيًّا ديمقراطيًّا، أن تكون أولًا وطنيَّة دستوريَّة اجتماعيَّة، ثم نمضي معًا نحو المَلَكية البرلمانية هذا ليس يسيرًا بدون تدريب شعبي وسياسي على ممارسة السلطة.... ويبدو لي أن الأوان لم يحِنْ بعدُ للتحوُّل نحو مَلَكية برلمانية... يلزمنا التعلم... والوقت... والثقة وهي الأساس..

والقطع مع البِنْيات السياسية الحزبية المنهكة والمتهالكة... ومحاربة جذرية للفساد ... أي حملة تطهير تبعد الانتهازيين والفاسدين....".

للأسف مع عدنان كل نقاشٍ له تفرُّعات... فالنقاش حول صفاء تحول إلى جدل أكاديمي.... وصفاءُ ليلةَ سفرها جلسَتْ معه طويلًا كل الليلة، بكَيَا معًا... وودَّعته ببرودة وهي ترمي نفسها في سيارة الأجرة.

هي تتصل حين يجب أن تتصل، المناسبات هي مواعيدُها معنا، هل غدت قاسيةً... أن أستعير لغة عدنان وأقول: "الغرب قاسٍ، قاسٍ جدًّا... يختطفنا دون أن نشعر، ناعم في التدمير... أبناؤنا حين يصلون إلى الغرب من أجل أفق جديد، عليهم أن يصبحوا جزءًا منه، وكل مقاومة تؤدي للفصام..."!

أعتقد أن الواجب في العلاقات يُحوِّل عواطفنا مجرَّد فقاعات مؤقتة، تتلاشى مع الغياب...

ابنتي صفاء حتمًا هي التي تحاول الاتصال هذه الليلة، وهاتفي كتومٌ من النوع القديم لا يكشف هويةً ولا رقمًا، يؤمن بمتعة المفاجأة ودهشة الكشف، وسحر البدايات غير المعلَنة، وفتنة الارتجال لا ضجر التكرار.

العاطفة الجيَّاشة الصادقة مرتجلَة... جامحة بلا عنان ولا تحتاج رقصةً أمام المرايا.. هكذا أردد كلما تلقيت مكالمةً لا شيء فيها عفوي، تظن صاحبَها اصطنع الحوار ليعرف، ليكشف جزءًا خفيًّا من حياتك أو التأكُّد

من إشـاعةٍ مـا، وحدهن الأمهات جميلٌ همسُـهنَّ... غضبهنَّ... كلامُهنَّ كالنهـر الهادر المسـافر من حلم جبـل متصوف الأفق، لا يُجِـدنَ التصنُّع، ويُلقِـين في مجرى الكلام الفرحَ كله والألم بلا عنان... الوجع كله والأمل بلا قيد... الخوف والهوس معًا.. كل الدفء وحتى الرعشات تُربِك مُدُن الوجدان.. الحب كله غير مقسَّط ولا بجرعات حسب الطلب، وحدهنَّ الأمهـات يظللن قُبَّعات الأُسَر التي تليق لـكل فصل هطل وصهد قيظ، وخِيامًا عـلى طريق حياة الأبناء تنتظر عودةَ التائهـين والضالِّين والعاقِّين والمسافرين وحتى الموتَى.

ابنتي صفاء تغيَّرت كثيرًا، ذهبَتْ للدراسـة في عمر عشرين سنة، أظن صيف ١٩٨٧، وتركت كل شيء وتزوجت شـابًّا فرنسـيًّا يعمل خبازًا في مخبـزة الأسرة، منذ خمس سـنوات زارت المغرب مرتـين فقط... وبإلحاح منـي لأرى حفيـدي دانيال ذا الثلاثة أعوام... غيَّرتها باريس فقسَـا قلبها شيئًا ما..!!

باريـس تعيد تشـكيل عواطف أبنائنا و مشـاعرهم بشـكل سريع... باريـس الحلـم والوهم في الوقت ذاته، باريـس لا تقبل بك كما أنت، هي متسامحة كلما قبِلْتَ بقيمها وأغلقتَ عليكَ الباب حين تريد أن تكون أنت بلا مسـاحيق حضرية... باريس قوة غاشـمة وناعمة في الوقت نفسـه... تُغـيِّرك رغمًا عن أنفك... يُغيِّرك سـحرها وفتنتها، وتُغيِّرك بيدٍ من حديد ذات قفـاز ناعـم من حرير، قد تتسـامح مع خصوصيـاتٍ لك في حدود

المقبول، شريطةَ ألَّا تصير الخصوصيات أسلوبَ حياةٍ، ومنهجًا وأفقًا...! قد تتساهل معك حين تغلق عليك الباب، لكن ما إن تتجاوز عتبات السكن حتى تُصبح جزءًا من حضارةٍ قلَّما تقبَلُ الشرقَ بأزيائه وقِيَمه، باريس تقبَلُنا كفلكلور ساحر، تقبل مطبخنا... تهيم في توابلنا... يفتنها الصانع في منسجه وورشة النحاس والجلود والنقش والزليج، تستلذ طعامنا وترفض طريقتَنا في الذبح.. تقبل رقصنا وأجواء فنادقنا المخملية لكنها تمتلك حساسية مفرطة لأزيائنا...!!

هل الغرب متوجِّس من شيءٍ ما...؟! أستحضر في ذهني صوتَ عدنان وهو ينظف نظارة القراءة: "الغرب متردِّد... يدرك أنه في حاجة للجنوب والشرق... كطاقةٍ بشريةٍ، لكنه يخاف من التكلفة، خائف من الاختفاء... من التلاشي... الكثرة الآتية من الجنوب والشرق تخيفه... تهدِّده... لهذا هو يدافع عن بقائه كغربٍ... هو يخاف أن يغدو قلة في هذا الشلال البشري الذي يحمل معه الطقوس والأعراف والقِيَم واللكنات ورؤًى مغايرةً للحياة وللأسرة"!

زرتُ باريس للعمل عدَّة مرات... كان عليَّ أن أكون امرأةً أخرى في شوارعها وفضاءاتها كي لا أُثير الانتباه، ففي فرنسا عليك ألا تثير الانتباه... أن تكون خفيًّا إن كنت بوَّاحًا... لا تسمح بلكنتك أن تفضحك، وإلا اصمت... ورغم ذلك، باريس قِبلة لأعراقٍ وحضاراتٍ مختلفة، الرفاهية والعيش الكريم والحرية والكرامة وحرية التعبير تُذيب

كل هذه المُفارقات، وحدَها قِيَم العلمانية تلأم ما يمكن أن يتصدَّع مجتمعيًّا بفعل ظهور حركات قومية يتقوى خطابها عند كل تدافع سياسي أو أزمة اقتصادية، لامستُ في فرنسا أن خطاب الكراهية ينتعش من الأزمات وليس مما يسمونه الصراعات الحضارية، الحضارات إما تتعايش أو تتكامل مُبلوِرة حضارة أقوى... أستعير عبارة زوجي عدنان وقد جاذبته أطراف الحديث يومًا حول صراع الحضارات فقال ذاك اليوم: "ليس هناك حضاراتٌ تتصارع... الحضارة واحدة... مشروع حلزوني في نموِّه... والذي يتصارع هو الثقافات والقوميات حين يصل التحول منتهاه ولا بد من منظومة قِيَم جامعة للتعدُّد..."، صراحةً.. في عيون بعض الفرنسيين حينما كنتُ بباريس كنت أراني مختلفةً ثقافيًّا لا حضاريًّا، وحين تنشط العنصرية تغدو عمياء وحطبًا للساسة.... فيخبو صوت القيم وراء صخب الغوغاء... لأن الحضارة قِيَم وليست عِرقًا ولغةً....!

وصفاء ابنتي لا خيار أمامها سوى أن يسكنَها الغرب بكل صخبه وأحلامه وأُفقه وطموح أهله، أو أن تظل في منطقة رمادية مؤلمة تحسَب كلَّ صيحة عليها، وكل همز يقصدها، والثمن مكلف، قد يصل إلى حد القطيعة واجتثاث الجذور في محاولة للعيش... للعيش لا غير أحيانا بجبن وأحيانا بشجاعة مكلفة، او على الأقل في سلام فيه من الاستسلام أكثر من التعايش.

ورغم ذلك أتفهَّمها... إنها تتصل أحيانًا والحافز لديها بقية من شعور نحو الأم بدأ يخبو... أو إحراج وجداني موجع...

إنها تتصل في المناسبات، لم أعد أجد كفاية من التَّوْق والدفء في الحديث معها... ما تقوله بدون خصوصية ولا طعم، سريع كوجبة سريعة... متكرِّر ونمطي كرسائل الهاتف الخلوي الباردة...

أقسمتُ ألَّا أردَّ الليلةَ... مهما يكن المتصل.. والهاتف يرن... وجهةٌ ما تتصل على هاتفي المحمول الذي يومض ضوءًا أزرق في حقيبة يدي...

الليلة أودِّع سنواتي الستين... وأنا خائفة... خائفة...

هم يريدونني قربانًا مبتسمًا على مذبح الزمن باسم الأمل... وأنا أغلقتُ الليلة كلَّ بوابات قلعتي... وليس معي غير قط أسود، و" كنار" في قفص لا يُغرِّد، وذكريات أبعثها من ألبوم صور... خطبة.... عرس... رقصة... حمل..... ولادة.... أسفار.... رحلات... صور حالمة لم تسرق الأيام ألوانَها ولا خلفياتها البهيَّة...!

باسم الفرح يريدون المشاركة في جنازة العمر... أنا أندحرُ... أنهارُ... أكادُ أختفي... يومًا عن يوم تضيق مساحاتُ حركاتي، تتقلَّص جغرافيًّا حياتي، تغدو المسافات مرهقةً، تتقلَّص دائرة العلاقات... تتغيَّر لغة التواصل، تصير اللغة واهِنةً مُتعبةً تصدر عن ألسنة مشفِقة تُشعِرك بالضعف والوهن، توقظ ألم مفاصل جسدي، ذاك الألم الذي لم

يعـد زائـرًا، غدا يميل بإلحاح إلى المكوث طويـلًا، والليل لم يعد نهرًا حالمًا ينساب في الزمن، زادُه الخيال، الليل غدا كفرسٍ جموحٍ لا عنان لها، تعدو في كل اتجـاه، تُسـقِط الفـارس والسرج، لا تغفـو ولا تخبـو صهيلها، إلا مـع انبلاج باكورةِ ضـوء الفجر. وهل تعوِّض غفوة النهار سُـبات الليل الهادئ...؟!.. تدق الأجراس... تهمس الجدران... فحيح الريح يهزُّ هزًّا دفتي نافذة منسـية... الحلم يهرب من المطارق والمناجل والبنادق.... كل تهنئة الليلة هي حطب للوهم... للخوف...

أنـا خائفـة.... فقـط.... أنا مجـرد امرأة خائفـة وحزينـة لا غير... لا تنصبوا لي المشـانق...! دعوني أديرُ هذا الذُّعر باختلائي، أعبُر هذا الجسر وحدي... لا أريد صورًا ولا شـهودًا ولا شـموعًا.... أنا فقط خائفة... وتأريخ الحزن والخوف قمَّة العبث، كوضع نظرات قزحية الزجاج...

ما انفكَّ الهاتف يهتزُّ... والمحمول يرقص... والستائر تحتجُّ... وحدَه القِط الأسود يُدرك أنها ليلة أخرى كباقي الليالي نجا فيها من كلبٍ شرسٍ بصعوبة.

كل اتصالٍ الليلةَ هو خيبة جديدة، كلامٌ بلا معنى، مجرَّد تواصل ملزم بلا حرارة صدر ولا دفء عاطفة...

الليلة أعبُر رسميًّا نحو زمن باهت... زمن أبهَى ما فيه ما ترك وراءه، والآتي مُخيفٌ مؤلم...

أقسـمتُ ألَّا أمنحهـم فرصةَ تأبين سـنواتي السـتين بوهمٍ اسـمه عيد الميلاد...

لم أعـد تافهـةً... ربما أخاف من عـدَّادٍ ناعم للعمر اسـمه عيد الميلاد، ربما لا أريد مَن يُحصي ما تبقى من عمري بباقةِ وردٍ وهدية وقالب حلوى وأغنية تُغنَّى أيضًا في القطب الشمالي...

أعيـاد الميلاد أسـطورة... نحن الوحيـدون في هذه المَجـرَّة من يحتفل بتـلاشي العمـر ونغني ونحـن نخطو نحـو النهايات... ونبتسـم في وجه الموت كلما خطا خطوةً نحونا...

لـن أمنحهم الفرصـة لترديد تلك الأغنيـة البليدة العابـرة للغات... تليق لكل الناس... لكل الأجناس.... لكل الأعمار...

يـرنُّ الهاتف بقوة كأنه مشـتاق إلى صـوتي ورائحة جسـدي... القدر يتسـلَّل إلى لغتنا ليقيس درجة الوهن، مع الزمن نضعُف حتمًا وتتضاعف الهواجـس والضجـر. الزمن امتحان قـاسٍ للزواج، ما اعتقـدت أبدًا أنه شراكـة، فالشراكـة واجبات وحقـوق، ولعبة محدَّدة المداخـل والمخارج، أينما حلَّ مفهوم الشراكة تقلَّص مفهوم الإنسـانية، والزواج حياة مشتركة لا شراكة، ندبِّره بشـكل يومي، كل يوم هو يـوم جديد في الزواج بمنطق جديـد وعواطـف مختلفة وأمزجـة مغايرة، أمـا الشراكة في الـزواج فهي تَشييء العاطفة وتحييد الصدفة واغتيال التحولات والمنعطفات...

الزواج سكينة ومودَّة لا وثيقة بنود بلا ارتجالٍ بشغب وشغف يومي لمواجهة تحديات الحياة... الزواج يتجدَّد عند انبلاج الصُّبح بعاطفة جديدة... بنظرةٍ محفِّزة وعلى مائدة الطعام بمجاملة يسطع لها نور القلب ويتلاشى بها وجع الأيام الصعبة.

سأعبرُ هذا الرقم المخيف وحدي... بلا شموع ولا أغنية غدت كترنيمةٍ في كنسية يردِّدها أسقف عجوز قُرب تابوتٍ لم يُغلق بعدُ...

ما أقساكَ أيها الهاتف العجوز... ترنُّ وترنُّ..!

رنَّة هاتفي الطويلة رغم شِدتها لا تجعلني أقفز ذعرًا خلافًا لضيوفي وزوَّاري الذين غالبًا ما يهتزُّون اهتزازًا في انتفاضة مدعاة للضحك وإن كنت أكتمه، فما تفعل فيهم هذه الرنة اللعينة يُمتِّعني، فأنا الوحيدة التي لا تُحركها قَيد أنملة، ويركبهم الخجل مضطربين حين يعلمون أنها مجرد رنة هاتف من زمنٍ مضَى غير رنات هواتفهم المحمولة ذات الرنات الهادئة.

عدنان زوجي يدرك أنني أستمتع بمثل هذه المواقف، يقول عقبَ كل مشهد ساخر مصوِّبًا نظره نحو المنضدة بمكرٍ: "يومًا ما سأتخلَّص من هذا الوحش..."، أعرف أنه يمزح، فمَن يستطيع المَسَّ بهاتفي...؟! وحين يلتقط تبَرُّمي وعدمَ رضاي من نظراتي الشرسة ووجومي، يضيف: "أعرف أنه مُدلَّلُكِ... لن أقربه..."، ويضحك مِلء فيه، ثم يقهقه الحاضرون متخلصين من ذعر الرنة التي تشبه صفارة سيارة الإطفاء...

عدنـان.. سـيتأخَّر كالعـادة... اتفقنـا... أن نـدع الستين عامًـا تمـر بصمت.. ألا نعطي للشـيخوخة حفلةَ افتتاح، ولا لجنازة أجمل سـنوات العمـر حفلَ توديـع مزيف... هل اتفقنـا حقًّا أم أنا مَـن ألزمتُه بالأمر؟! فحين أخبرته بقراري حدَّق في طويلًا وقال هامسًا: "علينا أن نحتفل كلما أتيـح لنا الأمـر، علينا أن نصنع المناسـبات لنفرح... لا يهـمُّ ما تعنيه ولا دلالاتها... أن نفرح لا يحتاج لنظريةٍ يا نجوى... لا لفلسـفةٍ... الشعوب تحـبُّ محاصرة الضجـر والملل، وأجمل ما ابتكرت الأعياد والمناسـبات... ليفرحوا.... لينعشوا الآمال في قلوب قد تكون تصدَّأت بفعل العادة.... دعينـا نحتفـل بأعياد ميلادنـا.... لا تجعلي الزمن مجرَّد عـدَّاد تافه يطحن الشغف والشوق...."!

كنـت فقط خائفـةً... أرفض التقدُّم في العمـر، فرفضتُ رؤيتَه وقلتُ ذاك اليـوم بعنـف وتوتر: "أعيـاد الميلاد نِفاق، وتسـمية مزيفـة لجنازات العمر... لن أحتفل بعد اليوم... هذا رجائي...".

أعياد الميلاد... طريقة ماكرة ابتكرتها الإنسـانية كي لا تبكي العمر... ولا تندب التقلص السنوي لحبل الحياة.

٣

في صبيحـة اليوم السـابع تشـكَّلت عقـدة مُرهِقة تـكاد تقطع أنفاسي في صـدري، عُقـدة من وجعٍ كتـومٍ وألم حادٍّ وحزنٍ وكمَـدٍ نافذَيْن، حتى شـاجت نفسي بقوة، وقست عليَّ قسـوةً لا تُطاق، حرقة نافذة في نحري، حاولت ترويضَها بالماء وطردَها بالشهيق والزفير، حتى شرقتُ وسعلتُ سـعالًا مؤلمًا، قطي الأسـود يقفز أمامي، يريد ملاعبتـي، ربما هي طريقته عنـد حـدس الألم للتخفيـف والمواسـاة، يـا ربي... العَبَرات توشـك أن تنهمر، أستسـلم... أترك الطبيعة الجياشـة رغما عني ترمِّم شروخ الروح .. أبكـي كطفلة صغيرة نحيبًا وشـهيقًا وزفيرًا جالسـةً في ركن من أركان المطبـخ... أظن أنني عبرت جسر ليلة السـتين بأقـلِّ الأضرار، وإن كنت أشعر أنني صِرت امرأةً من نوع آخر.

نسـيتُ أن أذكر أن عدنـان نكث عهده، وحفر ثقبًا تلـك الليلة -ليلة عيـد ميـلادي التي مرَّت بأسـبوع- في جدار قلعتي المغلقـة بإحكام، عادَ قبـل الفجـر، وكان حزينًـا، مثقـلا بالهمومِ، يُدنـدن أغنيـة لأم كلثوم، لا يسـتحضرها إلا والترح جاثِم على قلبه: "جددت حبك ليه... ليه..." في يـده باقةُ وردٍ يُلوح بها تكاد تتناثـر منها البتلات وقصيدة دوَّنها على ورقٍ عـادي، همَّ بقراءتهـا، فوضعتُ أصابعي على شـفتيه حتـى لا ينبس بأي كلمـة قد تنكأ الجراح، أخذتُ باقة الـورد ووضعتها على منضدة المطبخ، ثم سـندته وهـو يتمايل حتى تمدَّد عـلى السرير، نزعت حـذاءه وجوربَيْه،

وعجزت عن نزع بدلته، أحضرت السطل قُرب حافَّة السرير، فقد يغلبه الغثيـان فالقيء في أي وقت، همسَ وقد زاغَت عيناه: "لم أحبَّ غيرك.... كان علينـا أن نحتفلَ بأعياد الميلاد... ليس لأنها جنازات للعُمر.... أنتِ مخطئـةٌ... بل لأنها محطات للفرح والاحتفـاء بالانتصار على الزمن... بل هي لحظةٌ ننظر فيها للزمن في عينَيْه، وبدلَ النحيب نُقيم الأفراح.... أعياد الميـلاد كغيرها من أجمل الطقـوس التي ابتكرها الجنـس البشري، للعب مع الزمـن وترويض الرَّتابة والضجَر... نحتفل ولو بلغنا المائة سـنة.... نحتفل بنعمة البقاء على قَيد الحياة وسط الناس والأحباب الذين ما زالوا معنـا.... ما من طريقـة للصُّراخ في وجه الزمن: "أنـت وهم... لا يقهره سوى الفرح.... الفرح... الأعياد... بأعياد الميلاد يضعف إله الزمن.... كرونوس... عيد سعيد حبيبتي..."!

تعـصِرني كلماته عـصرًا، أخفقـتُ في كبح الدمـع الرقراق السـاخن، وجلسـت أرضًا أوشـك أن أنـدبَ، وانتصبـتُ واقفـةً وصوَّبت نظرات حـادَّة ثاقبـةً يطير منها الـشرر على وجهه وصرخـت: "لِمَ إذن زهدتَ عن فراشي.... لمَ أشعرتني أنني انتهيتُ.. شِختُ.... انتهت مدة صلاحيتي، رُدَّ عليَّ أيها الوغد..."؟!!

لم أتلقَّ جوابًا، عدنان غفَا تلك الغفوةَ العميقة، ورصَدَ بصري خيطَيْ دمعتَـيْن حارَّتين تعبران خديه، وظل يُهلوس مدةً طويلة وأكثر هلوسـاته ترديد أغنية عيد الميلاد.

بعدَ تَردُّد تفتحت شهيتي على عالم التلفزيون، والجرائد والأسبوعيات التـي تصلنـي بانتظـام... على مائـدة الفطـور تكلَّـم كثيرًا عدنـان ليجد الفرصة السانحة للحديث عن الاتصالات، قـال وهو يرمي للقِط بكُرَة تنس: "لقد اتصلوا بي بالخاص كلَّ أيام الأسـبوع، وتلقيتُ التهنئات.... ومـا العمل...؟ هكذا تسير الأمور.... شـكرتُهم وقلتُ لهـم إن نجوى لم تعـد تُخلِّد يومَ مولدهـا... بل أكدتُ لهم... أرادوا مـبرراتٍ... فكرت جيـدًا... فقلت... لا أعـرف ولكن أتفهمها.... يومًا ما سـنحتفل جميعًا بعيد ميلادها وجنازة هاتفها الضخم"!

لم أتجـاوب مـع حديثه، فعاد يسـألني عن القط وهو يمسـح بيده على ظهـره ويُلاعبـه، وقد أحبَّه بسرعـة وغدًا يأتي له بالطعـام كل يوم، ومبيد حشرات حيواناتي. سـقينا معًا النباتات، لاعَـبَ طائرَ الكنار لحظاتٍ، ثم وجَّـه إليَّ نظرَةً حائرة وقـال: "ماذا لو علمَتِ امـرأة أن زوجها خانها مرةً واحدةً فقط في حياتها....؟!"

نظرتُ إليه فوجدته مرتبكًا وقد اعتصر وجهه وطفق يطقطق أصابعه فقلتُ بكبرياء:

- مـرةً واحدة...؟! الأحسـن ألا تعلـم... فالقضية ليسـت كميَّة بل مبدئيَّة... الخيار الصحيح الصمت!

- ماذا لو ورطَتْه هذه العلاقة....؟!

- حمل...؟!

- لا شيء من نوع آخر...

- ابتزاز مثلًا...

- مثلًا...

عـدتُ للأريكة تمدَّدت، جلس إلى جانبي، فتح علبة الأكل للقط على السجادة، أغضبني تصرفه، فانتصبت واقفةً:

- لا تجعله يألف الأكل على السجادة...

وضعتُ علبة الطعام المصبر بالمطبخ، وقلت له من بعيد:

- حـين يتحوَّل الأمر إلى ابتـزاز.... لم يعد هناك مجال للصمت، لا بد أن يكلم زوجتَه، لتقليص الخسائر..

- كلام حكيم...!

تقـدَّم نحو المنضدة حيث هاتفي الرفيع، وبدأ ينظر إليه ثم حمله ولوَّح به وقال: "عليكِ يومًا ما أن تتخلَّصي من هذا الهاتف... فهو يبتزُّك"!

ثم دلف خارجًا والقط يتلاعب بتلابيب سرواله ويقفز فرحًا.

حتى سـلوى تصف الهاتف الأسـود عـلى المنضدة بالوحش، تُشـبهه بالأعـرابي الفـظِّ الجلف، فقـط لأن رَنَّته غـير ناعمة، ولأنه يبـدو لها غير جـذَّاب ولا راقٍ، لكـن هذا لا يمنعهـا من تمرير كفِّها عليـه بحُنُو غريب ومداعبـة خيطه اللولبي وهي تراقـص الفراغ، ثم تتوقف وتقول والخيط

بين أسنانها شاردةَ الذهن: "يا نجوى...! لا شيء جميل في هذا الوحش اللعين الذي يسكنك غير ملمسه الناعم الصقيل... لا أفهم رفضَك تغييرَه... فهو واجمٌ يبعث على القلق... الهواتف الجديدة ناعمة وسهلة الاستعمال وبلا أسلاك... وبرنَّات جميلة... موسيقى عالمية... أغنيات شرقية وغربية.. وهذا الوحش ما زال يزأر كي يؤدِّي وظيفته..."!

أحيانًا نوحي للآخرين أننا فهمنا ما يقصدون فقط لكيلا نحرجهم بالشرح أكثر، ومزيد من التفاصيل، فقد تورطهم اللغة فيما ظنُّوا خفيا كسلك الهاتف اللولبي المطاطي الذي ما زال بين أسنانها، أدهم جموح كحصان مُدبر ومُقبل، لكنه شكَّل دائمًا مصدر أمان نفسي وروحي لي، وأراه بعين الجمال حين يراه الآخرون بعين الزمن.

هاتفي حقًّا بسيط لكنه ذو مكانة خاصَّة في قلبي، لا يمكنني تصوُّر شقتي بدونه، بعض الأشياء نألَفها فتغدو حيَّة، وغيابها يؤلمنا حدَّ الفجيعة... هاتفي لم يكن من النوع الراقي، فهو عتيق غير مزيَّف التركيب ولا مغشوش الصناعة، حكيم في صمته، محايِد لا يتدخل في حوار ولا جدال، قويٌّ يتحمل السقوط لأنه من مادَّة بلاستيكية محضة بلا خليط، عدا بعض الخدوش، لا يتحامل ولا يتحالف، وإن كنتُ أشعر أنه حزين لحُزني، ومبتهج لحُبوري، وعليل لعِلَّتي، وقلِقٌ كلما طال الصمت في الشقة ولم يتصل بي أحد، فقد كان يخاف أن يتحوَّل إلى شيء قديم لا وظيفةَ له على منضدة صقيلة ، وقد رأى تغيُّر الأحوال حوله

وتبدُّل الحيـاة التي تتخلَّص من القديم كل لحظة ولو كان يؤدي وظيفتَه، فالسلع والأشياء غدَتْ تتحكَّم فينا، فصرنا نحن الأشياء بدل الأحياء... وغدت عالم الأشياء يفرض سلطته قيمه الرمزيَّة لا الوظيفيَّة علينا، وكثُر التغيـير لأجل الآخر وليس للحاجة، أنا وحدي يدرك قيمة هذا الهاتف، أنا مَن تؤنسنه، وأُمدِّد عُمرَه، وأُضفِي عليه هذه المشاعرَ والأحاسيس، ولمَ لا...؟! وهو شـاهدٌ على أدقِّ تفاصيل حياتي، من خيبات وانكسـارات، مـن أفراح وانتصارات، منـذ أحضرته من مراكش، منـذ أكثر من ثلاثين سـنة وهو رابض بكبرياءٍ كفرس دهماء على منضدة برَّاقة من رخام أسود صقيل يتخلَّله بياض فصيح صافٍ لحصوات ملساء.

غالبًا ما يسـتغرب البعض من احتفاظي وتشـبُّثي به وعلاقتي الغريبة بـه، فأنا أنظِّفه باسـتمرار وأسـوِّي المنديل تحته بمهـارة، وقد علم زوجي عدنـان ما لهذا الهاتف من مكانةٍ في حياتي، فلم يُغيِّره ويظل سـاخرًا يرفع له القبعة من حين لآخر مرددًا : "يا وغد...! سرقت مني زوجتي.."!

محتمل أن يذهب عقل بعض ممَّن أعرف بعيدًا في محاولةٍ للفهم، كربط خياري هذا بالحرص وعدم قدرتي على مسـايرة المستجدات في عالم يتغيَّر كل يـوم، وقد يوعز بعضهم الأمـرَ إلى قيمته التاريخيَّـة، أو امتلاك قهري مرضي، والحقيقة أن التأويلات تتكاثَر، ويُغنيها الخيال، وتُخصبها مشاعر الحقد والضغينة ورغبات الذات وتصفية الحسابات النفسية، فكل تأويل يصيبك في مقتل يجدُ صاحبُه فيه فرصةً للتنفيس عن ضغينة خفيَّة أو نفاق

مزيَّـف بعلاقة مدلَّسـة، والأمر بكل بسـاطة لا يعدو كونـه افتتانًا بكل ما هـو قديم عتيق، وألفـة وجدانية بهذا الهاتف الحميـم، ولا غروَ في الأمر؛ فالتَّليد من الأثاث يَسحرنا جميعًا، ويزرع في نفسي الغِبطة والسكينة، وقد عدلـتُ عن اقتناء هاتفٍ مـن النوع الجديد ذي الأرقام الملمسـيَّة الناعمة والمصابيح المترنِّحة عند الرنين البرَّاقة السـاحرة، ويرافقك أينما تنقَّلت في الشقة، لأن لي فقط طقوسًا خاصَّة، وأنا أتحدث على الهاتف كراقصةٍ تدور حول حبل، أو كساحرةٍ تُمرِّر حول عنقها أفعى... طقوسًا لو غيَّرتها أشعر باكتئاب عميق، وأضطرب وتهرب الكلمات مني..!!

علاقتـي بهاتفي الثقيل الصقيل ذي السـماعة التقليديـة الثقيلة علاقة جوانيَّـة غريبـة، فـكأنَّ لي ألفةً معـه من نوع إنسـاني عميـق، أو كأنه علبة أسراري وكاتـم أفراحـي وأتراحي، كأنه حي... ككاهـن صامت بوذي يمنحنـي كلَّ صباح بركاتـه... فعالمـي يعرفه جيـدًا ويُـدرك أدقَّ زفراتي وشهقاتي، ويُخفِّف عني اضطرابي حين ألمسه وأداعبه بغرابة.

قيمة الأشـياء ليس في ذاتهـا بل فيما نُضفي عليها من مشـاعر خاصَّة، مـن حضورها الرمـزي المُفعم بالدلالات والمشـاعر في تجربةٍ أو تجارب مهمَّة من حياتنا، ومن المسـاحة التي تشغلها في وعينا وفي ألبوم ذكرياتنا، كالفضاءات... فهي محايِدة بلا معنًى ولا مشاعر، نحن مَن نمنحها المعنى والوجود وبُعدها الإنساني...!

الـشيء يظـل مجـرَّد شيء حتـى نُؤَنْسِـنَهُ ونصبـغَ عليـه عواطفنـا...

انكساراتنا.. خيباتنا... حُبورنا... أفراحنا. لهذا فافتتاني بهذا الهاتف العتيق نابع من رحلته معي منذ سنوات... بيننا أُلفة وأسرار كثيرة، فوضع السماعة على الأذن ومداعبة الخيط بين أصابعي، والوقوف حينًا مستندةً على المنضدة المرمرية ذات الحواف النحاسية المتشابكة والمتشاكلة بمهارة عجيبة كنقشٍ أندلسي، والجلوس على الأريكة الفردية، ومداعبة خصلات شعري هي طقوسي عند كل حديث على الهاتف، منذ مرَّت سنوات وأعوام لم أغيِّرها ولا أنوي تغييرها، وتغيير الهاتف يعني تغيير طقس بكامله، لأنه جزء من هذا البناء الوجداني الصارم.

يُشعرني طقس حديثي على الهاتف بالهيمنة والتحكُّم والقوة، خصوصًا أن المشهد بكامله يتراءَى أمام عيني على مرآة من خشب صقيل، كأني في المرآة امرأة من عالم مَخملي أو سيدة في لوحة من لوحات البورتريه الإيطالي للقرن الخامس عشر.

المرآة غير فاضحةٍ للزمن فحسب، بل هي قوة من عالم سحري غريبة تمنحنا فرصة مراقبة الحياة من ثُقب محايد، أحيانًا قاسٍ، أحيانًا أخرى ممتع... قد لا نرى فيها إلا ما نُريد رؤيته، قد تتمرَّد وترينا ما نهرب من رؤيته والإقرار به.... المرايا الباردة غالبًا تخبئ الذكريات وتختزل في قلبها الوجوه والتحوُّلات... تمرُّد المرايا انهيار لعوالم يسندها الصمت والخفاء.

مرآتي أنا لا تُخفي أي شيء، بيننا ميثاق الثقة، تخبرني أنني أشيخ، تخبرني أني أحيانًا غير شهية، مبعثرة المزاج والصورة، تقسو علي، لكنها تهمس

في أذني: "ما زلتِ جميلةً... الشيخوخة لا تبدد الجمال... الجمال يتلاشى مع تلاشي الرغبة في الحياة... الشيخوخة قاسية حين يحالفها اليأس والانسحاب المبكر"!

حينها... أُسوِّي مظهري، أغيِّر ثوبي، أفتِّش في دولابي عن أجمل ملابسي، أجلس في الشرفة المطلة على الصنوبر، يملأ روحي نسيم عليل مضمَّخ بعبق الصنوبر، أرتشف بهدوءٍ نفسيٍّ فنجان قهوة، وأفتح روحي للعالم الخارجي، أنتعش بنسيمه وريحه وروائحه وحتى ضوضائه... الجلوس على الشرفة جزء من عزلتي الاختيارية، فهي تحمل إليَّ كل تفاصيل حياة الناس، أكاد أكون في كل شقة، أسمع صراخ الأطفال، صخب الأدراج، صراعات الأسَر حتى التافهة منها، أحيانًا آخذ جرعتي من خبر محزن، وأحيانًا كثيرة أفرح لفرحهم، ولأن في دمي جرعةَ فضول صحافيَّة، ظلَّت مهنتي تسكنني، فضولي كشف لي الخيانات المتعدِّدة، ونساء وحيدات حزينات، ومرضى يئنُّون بصمتٍ، وتفاصيل كثيرة...!

يتسلَّل جلول حارس الإقامة "مرجان" ليلًا مرة في الأسبوع إلى شقة في العمارة المقابلة حيث تقطن أرملة مات زوجها منذ سنة، بعدما يتموَّه في جلباب وطاقية، ويغادر قبل أذان الفجر وهو يكنس الفضاء بنظرات التوجُّس والريبة، وكانت لي معه حكاية يومًا ما، فهو اسمه الحوات، وذات ليلة طلبت منه أن يُحضر لي قنينة غاز، وكان لا يعرف مهنتي، فلا يقف لي كما يقف للكثيرين، فابتسم ابتسامةً ساخرةً ورفع حاجبًا

ودون أن ينظر إليَّ قال وهو يهزُّ كتفه الأيسر اعتدادًا.. كانسًا ببصره الأفق تجاهلًا: "أنا حارس البوابة... ولست خادمًا..."!

حزَّ في قلبي الأمر، فلا هو يقف لي كباقي النساء مهرولا مبتسما ولو رياء، ولا هو يحمل حقائبي وأغراضي، لدرجة أنني اشتكيته لزوجي عدنان الذي ردَّ عليَّ: " فعلا ليس خادمًا... هو مستعدٌّ أن يصبح كذلك... اشترِ الكلب... فالحق معه..."!

أما سلوى فضحكت ملء فِيها حتى بدا ضرسها المنزوع وقالت: "لا تكوني بخيلةً... فهم كشعراء المديح... "! ولأنني عنيدة، تحيَّنت الفرصة، وكانت تزوره زوجه من حين لآخر، فإذا أنا واقفة أمام سقيفته ذات مساء وهو يلهو بسيجارته، وزوجته ترشُّ الماء عند المدخل صرخت في وجهه: "أريد قنينة غاز اليوم قبل أن يجف الجلباب والطاقية...". نظر إليَّ وهو يحملق وأطبق يده على فمه، قالت زوجته مستغربة: "نعم سيدتي... حاضر... لكن زوجي لا يملك جلبابًا..." دنا منها ونهرها وقال لها: "اصمتي... لهجة أهل الرباط... يعني... بسرعة...!" وحصلتُ على ما أريد مع الوقوف احترامًا وأكثر...!!

محطاتي اليومية هي حين أُطعم الحمام الذي أَلِفَ مواعيدي، اعتاد التقاط الطعام من يدي دون خوفٍ والنزول ليلًا لتوزيع الطعام على القطط والكلاب التي أجدها في انتظاري، ما إن تلمحني حتى تأتي مسرعةً بحُبور طافح تقفز عليَّ وتلعق جسدي..!

مشـكلتي بل عقدتي التي تُكبِّل خطـواتي أنني أكره التغيير... بل مجرَّد التفكير في التغيير يجعل الذعر يشـتعل نـارًا حارقةً بين أضلعي، وترتعب له فرائصي ارتعاب الطفل الضائع في سـاحة حـرب... يُربكني... يُؤلمني السفر مثلًا... أنا أخاف من كل تغيير، مجرَّد تبدُّل الطقس بشكلٍ غير ناعم يُربكنـي، أخاف من ولوج عـالم لا أعرف مفاتيحه ولا خرائطه، هكذا أنا منذ صباي، أُفضِّل الثبات على التحول، أميل للاتباع على الإبداع، لهذا لم أكن في حياتي الدراسـية طالبةً بحِـسٍّ إبداعي، كنت أجيد الحفظ وتدوير المعرفـة لا غـير، ورغم ذلك كنت أحصد نتائج مهمَّة وجيدة، علاوةً على انضباطي وحُسن سلوكي.

أعـرف أنني مختلفة، أعرف أن التغيير يُسعِد البعض... التغيير يُخفِّف التوتر وتتلاشى معه فترات الضجر، هذا تُردِّده زميلتي سلوى في الجريدة وهـي تحكي عن رحلة خاطفة قامت بها خارج المدينة.... كنت مندهشـةً وأنـا أتابع خرائط تحركاتها وأسـفارها التـي لا تفتر... ومعجبـةً بقدرتها عـلى تحمُّل التغيـير.. هي في الحقيقة آنسـة لم تتزوج أبدًا... والسـفر -كما تقـول دائـمًا- يجعلها تعيـش في عالم متغـير دومًا.. يجعلها حـرَّة في اختيار الفضاءات والوجـوه والأطعمة والملابس... لا أعرف هل عدم زواجها خيـار وموقـف أم أن القدر حرمها مـن شريك للحياة؟! لم أسـألها يومًا، أخـاف أن أنكأ جراحًـا خفية... أن أطرق بابًا هي نفسُـها لا تفتحه، وإن قالـت لي ذات يوم ونحن في عُرس زميلةٍ: "أشـفق على هذه العروس من

هذا الزواج... لم يكن لها الخيار... فقد اقتربت من الأربعين... وبالتالي... قَبِلت بهذا البغل... خوفًا من كلام الناس لا حُبًّا... كيف ستُطيقه وهو مجرد تاجر للخردة... جاهل وهي صحفية مرموقة... متميِّزة...؟! أي نعم ليست بذاك الجمال... لكنها مقبولة شكلًا.. وعقلها وتعليمها يعوضان عن كل هذا... لكنها ذبحت نفسها بنفسها... دخلت عالم الحريم مُنقادَةً..."!

وحين قلتُ لها إن الزواج ليس بعالم الحريم، وإنه رحمة وسكينة ومصير مشترك وتقاسم للأحلام والأوزار... تبسَّمت بسخرية وهزَّت كتفها الأيسر ولوت شفتيها وقالت: "رجل... مثل هذا الزوج... متزوج... ويتزوج مرة أخرى... هذا النوع أعرفه... له عشيقات وخليلات... تزوَّج زميلتنا... لسبب محدَّد... وغالبًا... يريد أن يُقال تزوَّج صحفية... إنها صفقة ليرفع بها منسوب وضعه الاجتماعي لا غير... على كل حال... كنت ضدَّ هذا الزواج... هي التي قبلَتْ... للأسف... حتى المتعلمات والمثقفات يَخفْنَ من العنوسة... وكلام الناس.... أما أنا فلا أخاف منها.... ولا يهمني غير عملي وحياتي التي أعيشها كما أشاء..".

هل تقول سلوى الحقيقة؟! لا أدري... لكنها كلما حضرَتْ عُرس زواج، وكنا مدعوتَيْن معًا، شعرت بها مُحرجة حدَّ الحزن، ربما تُداري مشاعرها الدفينة بشراسة مفتعلة نفورًا مصطنعًا، بَيد أنها بمهارة عجيبة وبدقَّة متناهية، تتبع التفاصيل في كل عرس زيجة تحضره، فما سمعتها يومًا

تُثني على العريس، فإن كان متوسط الحال والعروس من وسط غني، رجَّحت بقوة فرضية الطمع، وحكمت على الزواج بالفشل... تنعت العروس بالغبيَّة التي صدقت بِضع كلمات في الحب والوفاء، وإن كان غنيًّا والعروس من وسط فقير، عددت عوامل فشل هذه الزيجة غير المتكافئة والتي في نظرها لا أساس قوي لها، ومنذورة للفشل حتمًا، وحين لا تجد ما تقول انتصارًا للعزوبة؛ تُعدِّد مشاكل ومعاناة المتزوجات، وتزجُّ بها في أي نقاش، لترسم صورةً قاتمةً عن الزواج، مُشيدة بحرية المرأة غير المتزوجة، في زمن تقول عنه اختفى فيه الرجال، لكنها في الوقت نفسه لا تستطيع عيناها إخفاء حُزن يعبُر من حين لآخر، ولا صدرها الذي يخذلها فيُصدر زفيرًا قويًّا لقلبٍ مُنفطر وللواعج داخليَّة تضطرب في مُدنها الداخلية وهي تُتابع طقوس الزواج ورقص العريس وعروسه، ولم تكن تردُّ مَن يدعوها للرقص بفرح وحماس، وكانت تنتشي بنظرةٍ فاحصةٍ لرجل فيها وهو يحييها برفع كأسه عاليًا أو بانحناءة خفيفة، كنتُ أشعر بها سعيدةً كلما اهتمَّ بها رجل ولو بابتسامة، وغاضبةً كلما لم تلقَ حدًّا أدنى من الاهتمام...!

هل هي حزينة...؟! هل هي سعيدة...؟! طالما سألتُ نفسي علَّني أعرفها أكثر... لكنها بالنسبة لي كوكب غامض بلا خرائط ولا مَعالِم واضحة... سلوى غامضة لكنها طيِّبة... فكتمان الوجع ليس شرًّا... والتظاهر بالحياة ونحن موتى مجرَّد عبور هادئ بين الأحياء... وسلوى

امـرأة تصنع الحياة من الصمت، والصخـب عندها أول مواجهة في وجه الموت، والسفر أقدم سلاح في جبهة اليأس.

فسـلوى رحَّالـة بامتياز، كل فرصة للسـفر تقتنصهـا بحماس، جالت المغـرب كلَّه، وشـدَّت الرحال إلى عواصـم أوروبا وإلى الـشرق العربي، وجالت في عدة عواصم أوروبية...!

لسـلوى حقًّا شـجاعةٌ كبيرةٌ في رفض الاسـتقرار الذي تعدُّه وهمًا... وقاتـلًا لمتعـة الحيـاة، فهي تحسـبه سُـمَّ الحياة، هذا مـا تزعـم وتدافع عنه بضراوةٍ... والسـفر بالنسبة إليها هو طعم الحياة.... تقول كأنها فيلسوف مسـاء: "خُلقنا لنسـافر... خُلقنا رُحَّلًا.... الاسـتقرار نشاز... وُلِدنا من أجل السفر... نحن كالطيور المسافرة... بل رُحَّل في الأصل..."!

أما أنا فمجرد امرأة تحاول بطريقتها عيش أول عام من الستين حولًا، وكل تفسـير لمرارة الحدث سيكون مجرَّد استعارات شاحبة لوجع منفلت لا تُطيقـه العبـارة، في العزلـة وجـدتُ مَـلاذي.. هدوئـي، وفي الوحـدة سعادة المختار لا الحائر، وفيها ثمالة المُقبل لا الهارب المُدبر، أنا مجرد امرأة اختارت الخلوة، لأخفِّف الخسـائر النفسـية، فالوحدة حـين تكون ملاذًا وجنَّة لمن يرى العالم بعيون أخرى غير جوارحه، تغدو غنًى وإثراءً للروح والبـوح والحبور الخفي، والآخر أحيانًا مهما كان قريبًا يكون عبئًا في زمن الاكتئـاب.... فالصـوم عن العلاقات قد يكون شـفاءً للروح المتشـظِّية،

والصـوم عن الـكلام لمجرد الكلام قد يكون إكسـيرَ الأفئدة المنفطرة....
لهذا دائرة علاقاتي ضيقة...!

سـلوى طائر مسـافر، تطير حيث الدفء، وتحبُّ حياة السِّرب، وتعدُّ حيـاتي منفًى طوعيا لكنه قاسـيا... نحـن مختلفتان، لكـن الاختلاف في الحياة وفي طريقة العيش لم يؤثر لى علاقتنا العميقة.

خلافًا لسلوى... أرى الاستقرار جنَّة وحياة بأقل الخسارات النفسية.. وأرى العزلـة خيارًا إيجابيًّا لمن يجد التفاهة في كل شيء، واللامعنى في كل سلوك بشري، فالمتعة إن افتُقدت مع الآخر أدركها الإنسان مع الذات.

ليس كل عزلةٍ جحيمًا... إن كانت اختيارًا فهي جنة المعذَّبين والمعذَّبات بعيون ولسان الآخرين..

العزلـة آخر سـلاح المعذبين والمعذبات. ليسـت جبنًـا ولا هروبًا، بل سلاحًا فتاكًا للتفاهة والخذلان.

أنـا وسـلوى نختلف كثـيرًا... لهـذا علاقتنـا محـدودة جـدًّا... وقلَّما نلتقي... انتقلتُ للعمل في موقع إعلامي نسـوي، كمسؤولة عن صفحة أسـفار وزينة، ولإني قاطعت المناسـبات الاجتماعية التـي دأبت هي على حضورهـا بشـكل هوسي، بـدأت علاقـاتي القديمة تتآكل وتتلاشـى... فالعلاقة يقويها الحضور وتضمُر مع الغياب...!

تغيير فضاءات النـوم... والنوم في الفنادق المختلفة.. وربط علاقات

مع أناس غرباء... وتناول الوجبات في المطاعم... وشد الرحال إلى أدغال إفريقيا... وحضور كل المناسبات والاختلاط مع الناس... تلك هي حياة سلوى... لدرجة أن مادتها الإعلامية غدت استطلاعات تُطعمها من تجاربها...

من أين لك كل هذه القوة يا سلوى...؟! فهي القوية الشرسة التي تؤكد دومًا كلما عبرت لها عن كرهي السفر لأنه مكلف لي نفسيا ووجدانيا... ولأنني كائن انطوائي... وأجد سعادتي في ذلك وأميل للعزلة التي أجد فيها متعة لا توصف خلافًا للاكتئاب الذي ينتابني زمن السفر والقلق الذي يعصرني كلما غيَّرت إيقاع يومي...

أقول لها: "الأمر لا يتعلق بالقوة، بل بالإرادة... مفهوم السعادة نسبي... لا معايير له ثابتة... الوحدة قد تكون مصدر سعادة البعض... كما قد تكون وضعًا قهريًّا قسريًّا يُشكِّل نبعَ حزنٍ واضطرابات نفسية.. في حالتي يا سلوى... العزلة جنتي.."!

كانت بسخرية تهزُّ حاجبها الأيسر وتلوي شفتها السفلى على عادتها حين تريد إضعاف المحاور وتردِّد وهي تربت على كتفي من موقع القوية العارفة: "الحياة لا نعيشها بالفلسفة.... الإرادة... وما شابهها.... انسي سارتر.. العيش وفق النظرية يا عزيزتي.. ينهي الحياة قبل بدايتها.."!

وأنا أعتقد وفقَ معاييري المُستقاة من حياتي البسيطة أن الإرادة وحدَها غير كافية كي نمضي في طريق مغاير... كي نغيِّر عاداتنا... الإرادة مرهونة

بالقُدرة... الإرادة مجرَّد نوايا إن لم تُعضِّدها القدرة تخبو في المهد أو تتحوَّل إلى هوس... إلى سُم يسري في الذات العاجزة عن ترجمة إرادتها لفعل إنساني... فلكي نتجاوز مخاوفنا وننجز.. نحن في حاجة إلى القدرة... ونسيت أن القدرة دائمًا معطى مادي... قد تكون مجرَّد استعداد نفسي وقوة وجدانية...

سلوى تصرُّ دائمًا على أن الإرادة تنتصر على الخوف والتردُّد والضعف... وهي الأصل والباقي تفاصيل... تصرُّ على أن انبعاث الأمل من تربة الإرادة وعلى أن الإرادة أين حلَّت معها إمكانات التحقق والتحول.

نحن مختلفان... ربما كلانا على حق... لأننا مهما ادعينا الموضوعية ذاتانا تخترقان كل نقاش ولاوعينا المتربِّص والكامن في شروخ الطفولة والحرمان والألم الغائر محدَّد حاسم وخفي لكل رغبة، لكل تَوق وطموح، فذكرياتنا الصريحة أو الخجولة وتجاربنا المؤلمة تتسلَّل المتوارية منها وتندسُّ تحت قشرة أي قول بل أي تواصل، تصوغ منطقَ الأنا... شغفها.. خياراتها.. هوسها... الموضوعية وهْمٌ... الذات حاضرة ولو كطيفٍ شاحب حتى في عقول العلماء...!

٤

زارتني سلوى هذا الصباح، ألحَّت عليَّ للخروج إلى ما تسميه عالم الأحياء، فعلًا مضت شهور دون أن تَلِج قدماي خارج الشقة، تفاجأت بالقط الأسود وهو ينام بهدوء بين قدميَّ تحت البطانية على الأريكة، قطَّبت جبينها وكادت أن تؤذي الحيوان الطيب، فأخذت تصرخ:

- ماذا يفعل هذا اللعين بين قدميك... اخرج.... اخرج...؟!

انتفضتُ واقفةً، وشللتُ حركة يدها وهي ما انفكَّت تبحث عن مكنسة ، مرتبكة مرددة بحنق: " قط... وأسود....."!!

شددتُ يدها بحُنو وقلتُ:

- يا سلوى.... هذا قطي...!

- ومتى كنتِ تربين حيوانات....؟! سيقولون شاخت وهرمت...

- وليكن.... هذا القط أقرب صديق لي هذه الأيام....

- ونحن...؟! ألم أعد صديقتك المقربة...؟!

- ما زلتِ كما أنتِ... المقرَّبة والوحيدة.... لكني أحيانًا أحتاج وجودًا حيًّا في حياتي من نوع آخر.... يسمعني فقط... يتفهَّمني دون أن يبحث عن الكلمات المناسبة للمواساة.... تشعري به يحسُّ بكل آلامك... فيكتفي بحركات موحية ليغيِّر مزاجك... نظرات هذا

القط تختلف والله حسب حالتي النفسية... أحيانًا يكتفي بالتحديق في طويـلًا... وأحيانًا أخرى يتمدَّد ويتقلب بشـكل غريب ويلعب بتلابيبي.....!

- أخاف أن ينسيكِ قطُّكِ أحبابَكِ...!

أقهقه عاليًا وأقول وأنا متجهة للمطبخ:

- يا حمقاء حب الحيوانات الأليفة وصداقتها ليسـت كحب الإنسـان وصداقتـه، لـكلٍّ جوهرُه وشـكله وأثـره وطريقة تصريـف المحبة والرأفة... أتغارين من القطط يا حمقاء...؟!

- لا... فقط أثارني اهتمامك بقط متشرِّد... كزوجة عقيم تعوض عن أمومة مفتقدَة..

- أو كامرأة عانس....

- وليكـن الأمر كذلك... ما الضير أن يكون لكِ حيوان أليف يخفف عنكِ الوحدة...؟!

انتفضَتْ غاضبة مضطربة:

- أنـا لا أعيش الوحدة... لي أصدقـاء وصديقات... ولا وقت فارغ لي... وأنتِ... أغلى صديقة...!

أسـحبها بلطـف ولـين إلى حضني، أضمُّـها بحرارة وأهمـس في أذنها

بعطف ومحبَّـة طافحتين: "أنت صديقتي... وأختي.... وعلبة أسرار.... أنت كنزي النادر..!

تبرق عيناها وميضًا جميلًا، يفترُّ فمُها عن ابتسامةٍ صادقة وجميلة – فقد كانـت شـفتاها ممتلئتين حمراوين، كانت أسـنانها متراصَّـة منتظمة ناصعة البيـاض، لولا بثور تتوزَّع على وجهها كأنها بقايا مرض الجدري، وزغب شـاربها، لبَدَتْ جميلةً، وحتى جسـمها الممتلئ دون تفاصيل لا يساعدها على بروز مفاتنها، وشـعرها المجعَّد الذي تـكاد لا تخرج من محل الحلاقة مـن أجله وجرَّبـت كل خلطات التنعيم لشـعرها وبشرتها غـير الناعمة، يوشـك أن يُصيبها بالهوس... لم تكن فاتنةً لكن كانت مقبولةً.... أنوثتها في لمسـة أصابعها، في عمقها وأغوارها البعيدة، ولا أظن أن أحدًا مستعدٌّ للغوص عميقًا للكشف عن أنوثة طافحة لكنها في صَدَفة مغلقة...!

القـط يدور حولهـا دورة ثم يجلس عند قدمها، يلاعبهـا بأظافره دون قسـوة ولا شراسة وهي متوترة في رعب، وبعد بُرهة اشرأبَّ برأسه عاليًا محدِّقًـا في وجهها، ثم طفق يعبث بالبسـاط الصغير تحـت قدميها، مُلوحًا بذيله مُصدرًا صوتًا خشـنًا كأنه في عِراك مع هدب من أهداب البسـاط، فتقزَّزت مرتعبة، مهرولة نحو باب الشقة، فضحكتُ مِن فعلها الغريب، وظلَّت هي تتفـرَّس فيَّ، وقد قطَّبت جبينها ووجمت، نقلَتْ نظرةً فاحصة بين القط ووجهي،، وقالت مغمغة وقد رفعت حاجبًا:

– إنه أسود... أسود.... يا صاحبتي!!

- وما المشكل...؟! وليكن.

- سمعت أن الجن تتشكَّل في القطط والكلاب السوداء...

- ما علمت أنكِ تخافين العفاريت...!!

- وما أدراكِ وهذا قط أسود دخل بيتك وسكن دون إذن...؟!

- لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفهم بالطوافات والطوافين على البيوت... لا ينجسون ماءً ولا طعامًا... أبيض القطط كأسودها... يا سلوى...! هل نعدم كل حيوان فقط لأنه أسود...؟!

- صرتِ فقيهةً وتفهمين في المِلَّة والدين...!

- يا حمقاء... أعلم ما يجب علمه من الدين بالضرورة...

- منذ صغري وأنا أخاف من القطط السوداء... والسَّحَرةُ يستعملونها في طقوسهم... وما أسمعه مُخيف..... والله مخيف....!!

- مجرَّد خرافات... كانت تسكن في حيِّنا في صغري ساحرة شمطاء، كانت تخيط أفواه القطط السوداء وتطلقها في العراء حتى تموت جوعًا.... ويُصدِّقنها الغبيَّات....

- كيف....؟! إن دم القط الأسود مطلوب عند ملوك الجن!

- هذه مجرد شعوذة لا غير.... إنها مجرد حيوانات بألوان مختلفة... كنحن... فينا الأبيض والأصفر والأسود والأحمر.... هذه خلقة

الله لا غير....!

- قلتُ لك إن الساحرات يطلبن القط الأسود والديك الأسود...!!

- والتيس الأسود... و......... و........ و.....

- نعم.... فالسَّحَرة يعملون العجب بالحيوانات السوداء....!

- يا صديقتي المتحرِّرة.... لستِ من يقول هذا...؟! لستِ من يؤمن بطقوس تؤذي الحيوان ولا تنفع الإنسان ما لم تتحوَّل خليطًا يخلط في الطعام فيكون سما بطيئًا...!

شعرتُ بها مضطربةً وما عهدتها غير قوية، فاستغربتُ لأمرها، كيف لامرأة بقوتها وشخصيتها ومسؤولة عن الجمال والزينة في موقع إخباري نسوي أن يكون لها موقف من حيوان بسبب لونه وتدرجه في خانة التلبس والسحر والدجل.

هدأَتْ وجلسَتْ ترتشف معي فنجان قهوةٍ، وأَبَى قطي إلا أن يقف عند رأسها مدة، ثم عاد يعبث بشعرها ومضى. وظللت أخفف عنها، فما ارتاحت إلا وهي ترى القط في حضني، أمشط شعره بأظافري، وألاعبه بخيط أدليه له فيقفز نحوه وهكذا دواليك... ثم قفز خارج الشرفة، وكنت أعلم أنها عادته كلما أراد قضاء حاجته الخاصَّة، حيث يغيب ساعة أو أقل ويعود.

قالت سلوى وهي تزدرد قطع الحلوى:

- أما زال عدنان على حاله...؟!

- نعم... خمر وسهر كل ليلة...

- الرجال يهجرون أَسِرَّة النساء.... لأسباب متعدِّدة... وجود امرأة أخرى.... العجز الجنسي الذي يحاول البعض التستر عليه بادِّعاء السحر... أو الضجر والملل لا غير أو فقط العجز لأسباب متعددة.

- لا أظن أنه يعرف غيري.... أعرفه.... قد يشرب مع النساء والرجال... قد تُقبِّله واحدة... فلا يردعها... لهذا لا أدقق في رائحة ملابسه... أما العجز... ففي سنِّه وهو المصاب بالسكري كل شيء محتمل، لكنه أستاذ جامعي ويعلم أن لعجز السكري دواءً ناجعًا.....

- لِمَ تستبعدين فرضية وجود امرأة أخرى شابَّة مليحة.... ذات أرداف وصدر مثير.... ألا ترين ما يقع في الخارج...؟!

- عدنان ليس بكائن شبَقي... أعرفه... وقد تعقَّبتُه وترصَّدتُه أكثر من ليلة...

قطَّبت سلوى جبينَها مستغربة، وظهر على ملامحها العجب وقالت ساخرة وهي تكوِّر شفتيها:

- أفعلتِ هذا... أفعلت هذا....؟!

بدَّدتُ عجبَهَا وردَّدتُ عليها بنبرة حادة:

- نعم فعلتُ ذلك يا سلوى... ورشوت حراس الأبواب والسُّقاة، كانت النتيجة أنه يسكر حتى يزيغ نظره وقد جاد على إحداهن بكأس أو كأسين أو حتى ثلاثة، ثم يطلب سيارة أجرة قبيل الفجر تأخذه وحده إلى البيت.... أجد أحيانًا أثر قُبَل، لا أُعيرها اهتمامًا لأنني أعرف كيدَ النساء، وأعرف أن بنات الهوى يوزِّعنَ القُبَل بلا حساب، وعدنان طَيِّب وخلوق مع المرأة خاصَّة، ويتفادَى إحراجَهن..

- إذا كان الأمر كذلك فعدنان به شيء ما... أو معمولٌ لكما عملٌ.... ولا بد من فَكِّه.

- يا حمقاء الأمر لا سحر ولا عمل فيه... ربما الضجر... لكن هذا لا يستقيم مع عدم وجود امرأة أخرى، وما سيفجر رأسي هو أنه زَهِد عن سريري ليلةَ سفر ابنتنا صفاء وبعد حديثٍ طويل بينهما...

وقعت سلوى في حيص بيص، فدلكت لحمة أذنها اليمنى وقالت بتأتأة:

- السرُّ كلُّه عند صفاء أو أن زوجك به أمر ما... فأنتِ يا حبيبتي جميلة وذات قَدٍّ وما زلتِ مثيرة وفاتنة...

لم أستطع أن أُلجم غضبي، فصرخت وأنا أضع رأسي بين يدي: العبث... العبث.... كبريائي يمنعني من سؤاله.... وهو يهرب إلى الخمر !

تمدَّدت سلوى على الأريكة، تخلَّصت من حذائها ذي السيور والكعب العالي المرهق، سوَّتْ شعرها بيدها، ثم رطَّبت شفتيها بأحمر الشفاه، ومرَّرتْ قلمَ الزينة على حاجبيها ثم مُزين الرموش، وضاعت وسط غيمة من العطر البرتقالي والحامض رشَّته بقوَّة وقالت وعيناها على المرآة:

- عليكِ أن تتوصلي للسِّرِّ بأية وسيلة...!

- أي سر...؟!

- ما دار بين عدنان وصفاء من حديثٍ ليلةَ السفر.... ألا تذكرين فهذه اللحظة مهمة... وهي بداية تغيُّره...!

- ما يقلقني هو طبيعة العلاقة القوية بينهما التي تلاشت بسرعة... وتراودني أفكار جهنمية....

- اصمتي...! أعرف فيمَ تفكرين... عدنان والد صفاء وليس ربيبَها.... ولا تخلطي طفولتَكِ بحياة البنت... إياكِ أن تفكري هكذا...! هي ابنته... هل جننتِ...؟!!

في هذه اللحظة بالذات، جالت في خاطري كلُّ الهواجس المخيفة، واستحضرتُ ذكريات قديمة تبعث على الريبة... فاعتصر قلبي... ولُذتُ بالشرفة أطلب هواءً نقيًّا وصورةَ زوج أمي اللعين المشهور بـ"العجل" تطاردني بشواربه الكثة ورائحته العفنة، وجبهته العريضة وفمه الأبخر.

ما خشيتُ منه تحقَّق بعد أن فطنَتْ بذكائها الحاد لوجود سرٍّ في الأمر، وقد عجزتُ عن التحكم في توتري وهلعي، فاصطنعت جاهدةً رباطةَ جأش، وقدمتُ لها طبق الحلوى مبتسمةً، فنظرَتْ إلى بإمعان، ثم وضعت مُشطها وقالت:

- لنفترض أنه هجرك من أجل امرأةٍ أخرى.... فليذهب إلى الجحيم.... الحياة أمامكِ... ولا بد أن تكوني قوية لمواجهة الموقف.... فقط يلزمك اليقين.... وبدون يقين يصير الأمر عبثًا...

- لا وجودَ لامرأة أخرى.... الأمر أكبر بكثير مما يمكن استنتاجُه من معطياتٍ خادعةٍ... فقد تغيَّر ليلةَ سفر صفاء.... وهذا هو المنعطف.... أذكر أنه طال الحديثُ بينهما تلك الليلة... كلاهما بكى بكاءً حارًّا... ومن ليلتها هجرني في الفراش وقطعَتْ هي كلَّ حديث معه... ولم تعد تسأل عنه حتى على الهاتف.

- ماذا قال لها...؟!

- لا أعرف... إني ضائعة وسط وساوس كثيرة...!

- أنت لا تريدين رؤية الحقيقة.... ما زلتِ تلتمسين الأعذار لرجلٍ لا يدخل بيتَه حتى الفجر.... لا بد من حسم الأمر وليكن ما يكون.... لا بد أن تتوقَّفي عن لعب دور الزوجة المتفهِّمة.... اغضبي لكرامتِكِ ولو مرةً يا نجوى....! سَلِيه وليكن ما يكون...!

- كرامتي لا تسمح..!

- أوف...!

قفز القط نحوها، تسمَّر أمام وجه سلوى وبدأ يُصدِر صوتًا حادًّا، فركبها الخوف، سلَّمتْ بسرعةٍ وهرولت خارجةً وهي تردِّد: "سؤاله هو الحل... فالأمر لا يُطاق.... وخنوعك يستفزني.."!!

يوجعني أحيانًا حديث سلوى، حينما توحي لي أنني أموت كلَّ يوم، حينما تؤاخذني على موقفي الذي تصفه بالجُبن من سلوك عدنان، وأخاف أن أكون امرأةً فقدَتْ بوصلة الحياة، أخاف أن أكون استسلمتُ للشيخوخة وتركتُ الحياة خارج شقتي... أخاف أن أكون أنتظر الفصل الأخير من عمري بعيدةً عن عيون الآخرين... فالشيخوخة قد لا نراها في المرآة... ولا في ترهُّل أجسادنا، ولا في ضِيق أنفاسنا، ولا في زحيرنا على السلم... إننا نلمسها في حياة الآخرين... في الأطفال الذين يكبرون ويتزوَّجون... في جنازات أترابنا... في ألقابٍ جديدةٍ تُطلَق علينا.. في أدبِ شابٍّ في الحافلة... في امتياز مؤلِمٍ في طابور...!!

هل أخافُ من رؤية شيخوختي في العالم الخارجي...؟! هل عُزلتي هروب من عيونٍ تكاد تقول ما أخافُ الاعترافَ به...؟! إنني أدنو من الموت.... لكنني أرفض أن أموت في عيون الناس قبل أن ألفظ آخر أنفاسي...!

أنا مُسالمة بطَبعي... أقتصد كل مجهود لا طائل منه... فبعض المعارك خسارتها النفسيَّة أكبر من غنائمها الوهميَّة كالانخراط في جدال أو نقاشٍ لكَسر العظام.

٥

زوجي بلغ الرابعةَ والستين من عُمره، ما زال يحاضر بالجامعة، لم نحتفل بعيد ميلاده في الربيع المُنصرِم، التزم بقراري ولبَّى رجائي، لكنه جاء بباقةِ وردٍ وقصيدة.

منذ سافرَتْ صفاء تغيَّرت أشياء كثيرة في حياتنا... عدنان أصابه الوهن... متانته ضعُفت، وأصبح البول يلحُّ عليه، والسكري أعلن زمنَه في جسده الصيفَ المنفرِط،... وأدمن على الخمر، لم أناقشه يومًا، اخترتُ الصمت، الصمت غير مكلِّف على الأقل، وأنا لم أعد قادرةً على مواجهةٍ عاصفةٍ.

ظللتُ زوجةً هادئة لزَوْج رغب عن سرير زوجته، ثم تاه مني في عوالم الليل... ظللتُ أنا كما أنا.... أصرخ فقط في دواخلي وأرمِّم شظاياي بالتجاهُل... هذا ما اعتقدتُ... فأنا أوهم نفسي أن الأمر لا يعنيني... ما دامت الحياة تأخذ مجراها دون ضجيج...!

والحقيقة المؤلمة أن الضجيج كان عاليًا في مُدُني الداخلية التي تعصف ريح الوجع بين خرابها، وتلتهم غربان الكآبة جِيَف مشاعري النافقة تحت قيظ حياةٍ لم يعد لي فيها أي دَور سوى انتظار زوج بعد منتصف الليل... لأسوِّي له وسادة النوم.... عملية أقوم بها... ولبساطتها تشعرني أني ما زلت جزءًا من حياته... ربما أريده أن يشفق عليَّ...!

هل أنا ضعيفة... أم أريد أن أشيخ بهدوء... ولم أعد قادرة على خوض حروب نفسية...؟!

أنا هكذا... لن أخوض حربًا لمجرد أن زوجي تغيَّر... لأنني لا أودُّ تغيير إيقاع حياتي ولا طابعها العامَّ ولو بالادعاء أن كل شيء على ما يرام.

أنا هكذا... مجرَّد تغيير بسيط في إيقاع حياتي يُصيبني بالكآبة...

كآبة جموح بلا عنان تخنقني أحيانًا حدَّ نوبة الذُّعر لو غيَّرتُ مجرَّد وسادة... كان المبيت خارج شقتي دائمًا تجربةً صعبةً... أرَقٌ وتقلُّبٌ في الفراش وانتظار انبلاج الصبح.. حتى عطوري لا تتغيَّر، فأنا لا أعدو نحو الصيحات الجديدة، وألواني المفضَّلة تتناوب بين الأزرق والأسود والرمادي...!!

هكذا أنا... تغيَّر زوجي.. فليكن.. لن يغيِّر الأمرُ شيئًا في عاداتي وطقوسي اليومية..

هكذا أنا... لا أحب المعارك المجانية التي كلٌّ فيها خاسر، حتى من تحمل لآخر لحظة وظلَّت رايتُه عاليةً.. هكذا أنا أعدُّ الصراعات النفسية والعاطفية نارًا لا تُفرق بين الأطراف، المنتصر فيها نفسه مجرد ظل بطل لن يشرب نخبَ نصرِه.

يعاتبني الكلُّ على رتابة حياتي، وعلى اهتمامي المُفرط بالنظام، فلو غيَّر أحدهم وضع مرمَدَة أعدتُها لمكانها بطريقة آليَّة، دون تفكير مني،

أنتـشي وأنـا أرى الأشـياءَ في مكانهـا، إلا مكتـب عدنـان، لا أدخله ولا أنظـم أثاثه، هو أصلًا فوضَى متواصلة، كتبٌ هنا وهناك... أوراق في كل مكان، سبورة يعلق عليها جذاذات لتُذكِّرَه بأشياء لا أعلم وظيفتَها ولا سياقها، تلفزيون يتابع من خلاله العالم حين أعطل تلفزيون الصالون، مذيـاع وقـارئ أقراص مدمجـة وأقراص هنـا وهناك.... وبسـاط باهت اللـون والنقوش، أعشـاش العناكب في زوايا السـقف، نافـذة تفتح لمامًا عـلى المسـبح، لا يهتـم بضوء غـير ضوء مصبـاح مكتبـه وكرسـيِّه الوتير الـذي يعشـقه، أمـا الجـدران الأربعـة فحوَّلهـا لرفـوف مكتبـة ضخمة، يتنفـس الحياةَ فقط حين يغـادر المكتب ويجلس لحظات في الشرفة ليدخن سـيجاره ويرتشـف قهوته ويقرأ جرائد اليوم. أما باقي أرجاء الشقة فهي عـالم أضبطـه كخريطة، لا تتغير فيها التضاريـس ولا المعالم... فكل تغيير يرهقني ويخيفني ولو كان مجرد تغيير موضع مزهرية..

ترتيـب أثـاث شـقتي كخريطـة لا تتغـيَّر معالمهـا... شـقتي جغرافيا تضاريسُـها أثاث لا يغيِّر مكانه... فالتغيير يقتلني... لهذا أكره السـفر... أكـره تغيير العلامـات والمعالم... أكـره التحوُّل والمنعطفـات... أكره أن أخـوض حربًـا مع زوجـي حول رائحـة عطور نسـوية تنبعث مـن ياقته ونحـره.. أخـاف أن أفتح عليَّ بـاب جهنم... أن يحـدث التغيير الكبير.. الصمت هو طوق نجاتي في هذه المرحلة...

منذ انقطاع الطمث، تفاقمَتْ عزلتي.. بانقطاعه عن جسـدي تغيَّرت

الرغبة في الجديد، وخبَتْ جذوةُ عدَّة معانٍ في وجودي، وصرتُ كشجرة تين عجوز لا تثمر على تلَّة حزينة، كل سعادتها أنها غدت شجرةً مباركةً تعقد عليها النساء الآمال والأحلام مناديل مخضَّبة بالحناء... تحركها الرياح في كل اتجاه... في انتظار غدٍ مختلفٍ...

هاتف البيت القار الأسود المنزلي جزءٌ من حياتي... من أمني الداخلي... فلا تكلموني عن الذوق...!

هو بوصلة للزمن حين آتيه... لم أغيِّره ليس حرصًا مني على المال ولا بُخلًا وشُحًّا، بل أنا شغوفة بالأشياء التي تعبق برائحة الماضي الجميل، وفي شقَّتي قد تجد ما تظنه قديمًا لا فائدةَ تُرجَى منه ولا نفعَ فيه عمليًّا، أعشق عَبَق كل تليد أصيل في الطعم والرائحة والذكرى والخيال والشغف... قد تربطني بالقديم البالي من الملابس مشاعرُ جميلة قويَّة، رائحة الصوف والحرير القديمَيْن لا تُقاوم... أشعر بلذَّة عند الملمس... نقش سجاد قديم، رائحة قصعةٍ من خشب العرعر، أو أوانٍ من نحاس أصفر. كلها أشياء قد تصنع نشوةً غامرةً في نفسي... وتُسعدني كهدايا في أعياد الميلاد، آخرها مذياع على شكل علبةٍ خشبية، بزِرَّيْن كبيرين، وواجهةٍ مغشية بجلد خشن...

أتجاهل الاتصالات لأني لم أكن مستعدَّةً للردِّ على أي اتصال، فليس لي ما أحكي، وحياتي صارت مشاهد تتكرَّر، والضجر يقضمني من الداخل، وبعض الاتصالات الهاتفية ضجر في ضجر... الأسئلة نفسُها والحوار نفسُه...!!

بعض الحوارات الهاتفية مكلِّفة نفسيًّا، لا تُضيف شيئًا، تتم فقط بدافع الواجب لا الحاجة، فتكون باردةً بلا عاطفة حقيقية... مجرَّد هدر ثقيل تستعجل نهايتَه، ولا تغلق السماعة أدبًا.. لا شغفًا، لأن مسلسل العذاب ينطلق بجُمل تتكرَّر بلا عمق ولا شغف، تصلح لكل زمان ومكان، وتُقال لكل شخص، قوة التواصل الإنسانية في أن تكون فيه أنت بلحمِكَ، وقلبِكَ، ومشاعرِكَ، وبخصوصيتِكَ، وهمومِكَ وتفرُّدِك وأحلامِكَ، وتشعر بلهفةِ اللقاء والتواصُل لأنه يعنيك حقًّا وبدافع المحبَّة لا الشفقة والواجب..!

تبًّا لهم... هناك مَن له سَعة الصدر لينتظر كل هذا الوقت بإلحاح ليُجري مكالمة نمطيَّة، ليسأل عن الصحة والأخبار والجديد...!

بلغتُ الستين عامًا منذ شهر... حتى سلوى أصبحت تُشعرني في كل اتصال بالضجر لا همَّ لها هي أيضًا سوى إجراء اتصالٍ روتيني، أكاد أتكهَّن بكل كلمة من كلماتها... بكل جملة... بالاستهلال والقفلة... أكاد أشعر أنها تريد التأكد من كوني ما زلت على قيد الحياة، وأني لم أمُت وأتعفَّن في فراشي...! ويهمُّها أكثر تتبع أخباري مع عدنان... هل مازال يسكر حتى الفجر...؟! هل مازال ينام في سرير منفرد...؟! هل توصَّلتُ لسبب تجاهُل صفاء له وبرودة العلاقة بينهما....؟! هل أخبرتني بشيء لم أكن أعلمه...؟!

شلَّال من الأسئلة يُعري فضولًا غريبًا لمعرفة تفاصيل حياتي، أما أنا

وكعادتي حينما يغلبني الضجر أو تؤلمني أسئلتُها فأقسو عليها بمكرٍ مقصودٍ بسؤال أعلم أنه خبيث وما أريد كُنهَ الخبر وإنما القهر: "متى نحتفل بكِ يا عروسة....؟! أنتِ الآن في الخامسة والأربعين..... لا تنسي نفسَكِ.... فقطار العمر يمضي كالبرق.... ها أنا صرت امرأة ستينية دون أن أعرف كيف ولا متى... العمل يُعمينا للأسف عن مباهج كثيرة... هل ستظلين متطلبة والحياة تعبر بسرعة..؟!" وأنا أدرك أن هذه الترسانة من الأسئلة سُمٌّ في محاورتنا، ولا بد من رصاصة تصيبها في الجناح الهشِّ، لكني رغم ذلك دون رحمة ولا شفقةٍ، بل برغبة جامحةٍ أرشقُها به علَّني أُوقِف سَيلَ أسئلتها الجارحة، ماذا تنتظر من سؤالٍ عن جواب مرتبط بهجران عدنان لفراشي، ولتلبُّد سماء علاقة صفاء بعدنان ليلة سفرها؟! وماذا تنتظر مني وهي تسألني عن السر بينهما المحتمَل؟! لقد كنت رحيمةً بها حين أُربكها بأسئلة عن زواجها، وعن التساهل في الأمر، حِفظ سقف الانتظارات، وعليها أن تعيش كأنثى بكل عيوب واختلالات الأنثى، فعيوب الأنثى وضعفها مصدرًا قوَّتِها وفِتنتها..... بمثل هذه العبارات كنت أخمد نار مدافعها، والحقيقة أنها لا تقصد أن تجرحني أو تُربكني لكنها طالما كانت غير موفَّقة في إجراء محاورة هادئة.

أستحضر علاقة صفاء ابنتي بأبيها وهي التي كانت تربطها به علاقة خاصَّة، ليست كعلاقة الأب بابنته، كان لا ينام حتى يلقي عليها نظرةً ويظل طويلًا في غرفتها وأنا على الجمر، متوجِّسة يعصرني الشك، لا

يصلنـي غير قهقهتها وهمسـاتٍ وضحكٍ... ثم يطفـئ الضوء ويلوح لها بقبلة في الظلام ويعرج على غرفة نومنا...

عاملهـا هكذا منـذ الصبا... لم تكـبُر في عينيه أبدًا... كأنـه يريدها ألا تكبر...!

كلـما رأيتُـه يدخـل غرفتَها ويقفزان معًـا فوق السريـر تملَّكني الخوف واسـتحضرتُ جزءًا مـن مراهقتي... فأمي تزوَّجـت الرجل الذي ظننتُه أبي بعدمـا ترمَّلَـتْ أمي وجاءت عروسًـا مـن قرية بعيدة لـدار "العجل" ومعها رضيعة، فنشـأتُ ربيبةً في حضنه، وكنتُ أناديه أبي... وأمي تناديه المختار، وكل أهل القريـة ينادونه "العجل" فقد كان قصيرًا ممتلئًا باللحم سمينًا بارز الكرش.. واسـعَ المنخرين... جاحظَ العينين.. أبيضَ البشرة تحمَـرُّ لجهدٍ أو بلا جهدٍ... كثَّ الحاجبين، أقرنَهما، مستويَ الأسـنان إلا من سِنَّة بارزة شيئًا ما غشاها ذهبًا، وكان لباسه الجلاليب والأحذية ذات الرقاب العسـكرية الغليظة الثقيلـة، كان ذا كتفين قويين كمُصارع، قوي الخطـو يثير الغبار والحـصى كالعجل، ومن هذا جـاءت الكُنية، وكان إن دخـل صراعًا غلـب وأنهك خصمـه، وإن خاض جـدالًا غلب بفاحش القول وصخب اللسان والتهديد والترهيب واللطم والركل.

لم تخترْه أمي، وكانت جميلة طويلة دون عيب... سمراء صافية البشرة. ذات شـعر أفحم مسـدَل كالحرير، تجمعُه بقطعة حرير مزيَّنة بالأهداب، وكان مـن عـادة قبيلتهـا ألا يتركـوا الأرملـةَ والمطلقةَ بـدون زواج، لهذا يعطونها لأول طارقٍ.

كانـت تعيـش في كنفـه، ترعَى له بقـرات والدجـاج والبـط وتراعي حصانه الذي يحبه، وكان هو يجولُ الأسـواقَ دلَّالا يتوسَّط في بيع الخيول والأبقـار، لا أرضَ لـه يحرثهـا، حتى المـاء نأتي به من بئر بعيـدة، وكان له أهـلٌ نبذوه وقطعـوا صلة الرحم معه، بعدما بدر ميراث أبيه على النسـاء والخمـر والليـالي الحمراوات وطغى عليهم مسـتقطعًا من حقوقهم ما لا يجوز له شرعًا...!

كنتُ متوجِّسة من تردُّد عدنان على غرفة صفاء، بدافعٍ غريبٍ، وشتان بين زوج أمي وعدنان زوجي، فإن كان زوج أمي تسلَّل إلى غرفتي مرارًا وأنا طفلةٌ، وتحرَّش بي سطحيًّا مهددًا بقتل أمي، وتركته يفعل أشياء كثيرة دون أن يفـض بـكارتي خوفًا على أمي، فالذي آلمنـي أن أمي رأت يومًا ما يقع، وصرخت ثم سـقطت مغشـيًّا عليها، وبدل أن تفضحه ونهرب معًا ظلَّـت في البيت صامتةً لُمدَّة يركبها القلـق والوجوم وأبيتُ في حضنها إلى أن رحل ولم يعُد..

لم تعـد ابنتي كلما اتصلَتْ تسـأَلُ عـن أبيها... هل أسـاء إليها وصحا وعيُهـا فجـأة...؟! أيكـون صـورةً متعلمة مـن "العجـل"؟! لا أظن... علمَتْ صفاء عن هجرِه فراشي وسـهره وعودتِه بعد منتصف الليل ثَمِلًا تفوح منه العفونة، لم تُعِر الأمرَ اهتمامًا، قالت ببرود: "هو لا يستحقك.... بعض الرجال لهم ألف قناع....."!

زادت شـكوكي.... وألهبَـتْ خـوفي.... هيَّجـت عواصـفَ يَمِّي... فسقطتُ في اكتئاب عميق....

٦

سـمعتُ طرقاتٍ قويةً عـلى الباب، وكان النهار قـد انتصف، وظلال الأشـجار القاتمـة بدأت تتشـكَّل كوحـوشٍ ضارية على الجـدران، حيث كانت الشمس واهنةً يحجب أشعَّتها الدافئة من حين لآخر قوافلُ متتابعةٌ لغَيْـم ثقيـل يسرح في السـماء، وبضع أشـجار تجـاور شرفتـي رمَتْ بكل ظلالها وضجيجها داخلَ الشـقة. تجاهلتُ الطَّـرْق في البدء ظنًّا مني أنني فقط تخيَّلت الأمر، ففي وحدتي أسمع ما لا يسمعه غيري، أستطيع سماع دقات قلبـي وقطرات صنبور الحديقة الخارجيـة، وخطو جلول، وهمس الجيران، بـل أحيانًا تلتقط أذناي حشرجةَ وأنـينَ الغرائز وانعتاقَ الأَسِرة من كل قيد مفترض.

ألـحَّ الطارقُ بطَرقٍ قويٍّ على الباب، مـع جَلَبة وصخب على الدرج، وهمهـماتٍ وأصـواتٍ خفيضـة، هـو بـاب شـقتي إذن، رغـم أن لا أحد يـزورني بعد الظهيرة! أنا أعيش وحدي، وزوجي لا يعود إلا عند انبلاج ضوء الفجر، وهو لا يطرق الباب، بل يسـتعملُ المفتاح مرةً ثم مرةً حتى تنجـح محاولاتـه، وإن حالت ثمالتـه دون إيلاج المفتـاح في القفل بعد كل المحـاولات، يطـرق طرقًا خفيفًا، أعرف شِـدَّته وإيقاعَـه، وما يرافقه من غمغماتٍ وهدر، وينادي باسمي، نعم باسمي، ربما هؤلاء لصوص فَطِنوا لضعفـي ووحـدتي، ويحاولـون الآن اقتحام شـقتي، لكن مـن أنبأهم بما أدسُّ بين الملابس من حُليِّي وأسـاوري وأقراطي وقلادتي وسلسلتي من

الذهب الخالص وهي كل مدخراتي في الحياة...؟! الحُلي لا أتزين بها إلا في الأعراس، ولا أضعها في الأيام العادية اتقاءً لشَرِّ اللصوص، فالمدينة غير آمنة، والمُدمنون يستعملون دراجاتٍ سريعةً لانتشال أي شيء ذي ثمن، الإدمان على المهلوسات أعمَى الشباب، حتى عقُّوا أولياءهم وخرجوا للشوارع مُهدِّدين بالسيوف من أجل السرقة والنشل والعربدة، وما أكثر النساء اللواتي يعانين من ندوبٍ على الوجوه جرَّاء مقاومةِ محاولةِ سرقة !... فقد تُقطع يدي من أجل سوار أو إصبع من أجل خاتم، هذا ما ردَّد عدنان في أكثر من مرة عليَّ محذِّرًا بشدَّة تثير الخوف والهلع: "اللصوص يقتلون من أجل حقيبة أو سوار، يبترون الأيادي والأصابع، يشرمون الآذان من أجل أي غنيمةٍ من ذهب أو من أجل هاتفٍ، لا تضعي شيئًا نفيسًا في حقيبة اليد، إن أراده قطاع الطرق لا تقاومي... لا تضعي الحلي... لا تتكلمي في هاتفك في الشارع العام إلا للضرورة وأمِّني نفسَك قبل ذلك... لا تصرفي الأموال من الصراف الآلي المنعزل.."!!

- مدام نجوى...! مدام نجوى أدرار....! نحن الشرطة.

- الشرطة...! رباه ما الذي أتى بالشرطة في منتصف النهار؟! ماذا وقع...؟! ومَن أدراني أنهم الشرطة؟! أكُلُّ مَن قدَّم نفسه من الشرطة شرطي...؟! قد تكون مجرَّد مصيدة للسطو على الشقة.

- الشرطة...! كيف أعرف أنكم حقًّا الشرطة...؟!

- معنا حارس المدخل.... جلول...

أسـمع صوت جلول مرتعشًا يتقدَّم نحو باب الشقة بخُطى مضطربة تعكس حجم خوفه وهلعه:

- نعم... أ لالة نجوى هؤلاء البوليس...!

- وكيف أعرف أنك لستَ متعاونًا مع عصابة..؟!

يسـود الصمت لحظة، يتبادل رجال الشرطـة أطراف الحديث بضَجَر وتذمُّر... ثم يقول أحدهم:

- على كل حال... نُخبرك أن زوجَكِ في مستشـفى ابن رشـد بسـبب حادثةِ سَير....

- حادثة سير.... عدنان.... رباه....!!

- لا تخافي... سـيدتي الأمر لا يدعو للقلق... زوجك في المستشـفى.. صدمته سـيارة... وحالته مسـتقِرَّة لا تدعو للقلق.... تعالي معنا.. نجـوى... التوجـه إلى مستشـفى ابـن رشـد بالـدار البيضـاء.... أرجوكِ... لا تفقدي أعصابَكِ...

- الدار البيضاء....؟ وماذا كان يفعل بالدار البيضاء....؟!

- لا نعلم شيئًا سيدتي...!

- من المفروض أن له محاضرات بالرباط...!

- لا نعلم.... أخبرناكِ بما نعلم... كان الله في عونك...!

ينسحبون في صمت، أسمع وقعَ أحذيتهم على السُّلَّم، أطِلُّ عليهم من الشرفة، يرفع أحدهم نظره صوبَها، يتجاذب أطراف الحديث مع جلول الحارس، ثم ينخرط في الحديث معهم الحاج رضوان رئيس اتحاد المُلَّاك، ويصحبهم باعتدادٍ وزهوٍ نحو السور الشمالي المطل على خلاء رحب، يريهم قنينات خمر ونفايات متنوعة، كأنه يُحدثهم عن شرذمة من الجانحين يقفزون من فوق السور ويتخذون من مكان قُربَه بين الحشائش والشجيرات فضاءً لتناول الخمر والمخدرات، يهزُّ أحد رجال الشرطة رأسه وهو يمشي حثيثًا، تلتقط أذني كلماتٍ تصدر منه: "لو عاد هؤلاء الأوغاد اتصل بي، رقمي عندك... وأنت يا جلول ألستَ حارس البوابة؟! قم بعملك وبلِّغ عن كل شيء مريب... وتعلَم ما أقصد...!" باضطراب واضح وخطو سريع كاد أن يزل جلول متعقبًا الشرطي وهو يهم بركوب سيارة الشرطة ويقول مرتبكًا: "طبعًا.... سيدي.... كل صغيرة وكبيرة... فقط هذا الجانب من السور بعيدٌ عن البوابة، والذين يقفزون من فو السور كثرة وأشداء وجانحون... ويلزم وضع كاميرا هناك...." قبل أن تنطلق السيارة، يهمس الشرطي في أذن الحاج رضوان رئيس اتحاد المُلَّاك، ثم يردف له بصوت عالٍ: "عزِّز الإقامة بمزيدٍ من الكاميرات... مع السلامة.."!

ماذا كان يفعل عدنان في الدار البيضاء؟! يا ويلي إن أخفَوْا عني أمرًا خطيرًا...! سأتصل بسلوى لترافقني... من الصعب عليَّ أن أقود وحدي

في هـذه الحالة، لماذا لم يتصل بي هاتفيًّا...؟! من السـهل أن يجدوا اسـمي في لائحـة الهاتـف، وقـد سـجَّلني بزوجتي، يـا رب... حتمًا هـو في حالةٍ مُزرية... والهاتف تهشَّـم.... حتمًا هو فاقد للوعـي... وإلا كان أعطاهم رقـم هاتفي.... حتمًا بحثوا في جيوب سـترته واعتمدوا على بطاقة الهوية لمعرفـة العنـوان.... الأمـر ليـس عاديًّـا.... ربـاه... لا أطلـب منـكَ ردَّ القضـاء ولكن اللطـف فيه.... رحمتك يـا رب....! رحمتك....! رحمتك يا رحمان..!

مجرد الحصول على معلومة في مستشـفى ابن رشـد يعدُّ مغامرةً محفوفةَ بالمخاطر، فالكل متوتر أو حزين أو على أهبة الانفجار، السعيُ للحصول على معلومات وسط متاهة مفتاحها الرشاوى أو الحظ، الجَرحَى في باحة المستعجلات ينتظرون وهم ينزفون، الضغط على الأطباء عالٍ، تصل حالة التوتر إلى حدِّ تبادُل الشـتم والسـبِّ، سيارات الإسـعاف مجرَّد سيارة بلا تجهيزات، فقط سرير نقل وضوء أحمر مترنِّح وصفارة قوية لربح الوقت، رائحـة المستشـفيات تخنقنـي، يـكاد يُغشَـى عليَّ، البـكاء... الـصراخ... الصيـاح... الصخب... الغضـب... رائحة المـوت في كل مكان، غلبَني بقـوة الغثيـان، فقصـدتُ المرافـق الصحية، فرميـتُ ما في أحشـائي على عتبتهـا، البـول في كل مـكان، والمراحيـض تلفـظ البـول والبراز، نسـاء يتألَّـمن عـلى الأرض، عليهن انتظـار الدور، والطابـور طويل وفوضوي، ضحايا الحوادث يصرخون، ضحايا العنف يحتجُّون ومستعدون لإشهار

الأسلحة البيضاء، شابَّة تصرخ: "أمي تموت.... أمي تموت.... أرجوكم ساعدونا..."، في ردهة المستعجلات مندبةٌ لطفل مات أمام أعين أهله، وحُراس الأمن في مشادَّات مع المرضى أو أهاليهم، الألم.... اليأس... الموت... عنوان هذا الفضاء، وأنا وسلوى نريد فقط معلومةً عن رجل جِيء به بعد حادثة سير، اضطررتُ لتقديم رشوة، جاءني الحارس بالخبر، وحارس آخر يطلب حقَّه لمرافقتنا إلى جناح أمراض الرأس والأعصاب، ساعات تمر كأننا في الجحيم، وأخيرًا وجدتُه في قاعة على سرير مُهترئ، وغير موصول لا بالأوكسجين ولا أي شيء، سألتُ ممرضةً وأنا مرتبكة خائفة:

- هل حالته خطيرة...؟!
- نعم...!
- سألتكِ هل حالته خطيرة...؟!
- مَن..؟
- زوجي... الغائب عن الوعي... على السرير قرب الباب...
- اسمه...؟
- عدنان الشرقي...
- هل من علاقة قرابة....؟!
- أنا زوجته وهذه صديقتي...
- البطاقة نجوى هو...!

تتسلم البطاقة بتأنٍّ قاتلٍ، وتشرع في تصفُّح السجل، كأن الضحية مسجَّل مند قرن، وما كان عليها سوى البحث في صفحة اليوم، تمدُّ يدَها إلى صحن لوز، تلتقط واحدةً وتلوح لزميلةٍ لها تعبر البهو.

- نعم عدنان الشرقي.... حادثة سير بشارع غاندي، صدمته سيارة... لا أثر لكسور... لكنه أصيب في الرأس دون نزيف... جِيء به حوالي الساعة الثالثة زوالًا... صدمته سيارة... جاءت الشرطة وأخذت أوراقه من سُترته.... نشك في نزيف رأسه...

- وماذا تنتظرون...؟!

- الطبيب المختص...

- وأين الطبيب المختص؟!

- في قاعة العمليات...

- قد يموت.... إنها مسألة وقت.... الزمن حاسم في ارتجاجات الرأس... لا نرى دمًا... ولكنه فاقد للوعي... وهذا مؤشر خطير... استعجالي...

ردت الممرضة ببرودة وهي تتصفح سجلًّا على مكتبها، وترتشف كأس شاي:

- ما العمل...؟! ثلاثة أطباء كلهم منشغلون... وفوق هذا جهاز التشخيص معطل... أنصحك بنقله إلى مصحَّة خاصَّة.... فلا

نعرف متى يتفرغ الأطباء.... ونحن لا نستطيع سوى مراقبة تطوُّر حالتـه... انظري هناك حالات تنتظر خـروجَ أول طبيب من قاعة الجراحة، وطبيب المستعجلات منشغل مع حالة حرجة... ما باليد حيلة... خذوه لمصحة خاصَّة...

- نعم.... سأفعل.... حالًا.... توًّا....

- هذا رقم سـيارة الإسـعاف الخاصَّة.... التي سـتأخذك إلى المصحة الخاصَّة مصحة "كوبرنيك... ".

اتصلتُ بسـيارة الإسـعاف الخاصَّـة، حضر السـائق ومعاونه بسرعة فائقة، تقدمَـتْ منهما الممرضة وقالت لهما بنبرة حادَّة جادة: "أراكما عندما تعودان.... قولا للبروفسور جلال إن المريض من طرفي..".

مـا كنتُ أخشـاه وقـع، ألا تتحمَّل سـلوى هـذا العبـث، بحثتُ عن مكتـب المديـر وهي ترغد وتزبـد وقد تطايَـر الغضب شررًا مـن عينيها، وحـين طلبَتْ مقابلته، أجابها باسـتهزاء الحارس وهو يتفرَّس فيها بزاوية النظر و يقرأ جريدة:

- المدير...؟! المدير "دقة واحدة" اذهبي لرؤية الممرض الماجور... أو رئيس مصلحة الأعصاب..!

أشـهرَتْ بطاقـة الصحافـة، وردت عليـه بحنق توشـك أن تخنقه من رقبته:

- قل لمديرك صحافيَّة تريد مقابلتك...

تغـيَّرت ملامح الحارس حين رأى بطاقـة الصحافة، وطوى الجريدة، وانفرجت أسارير وجهه، وقال وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- لـو قلتِ إنـك صحافيَّـة لخدمنـاكِ... دون الحاجة لرؤيـة المدير... مرحبًا.... نحن في الخدمة...

- أريد رؤية المدير.... لن أكررها...

- طفقـت تأخـذ صـورا بهاتفهـا وتسـجل مـا يقـع في جحيـم هـذا المستشـفى، فتعمَّـد حـارس أمـن خطف هاتفهـا وأسرع هاربًـا، وظلت تـصرخ بصوت عـال حتى حضر رئيـس الممرضين، الذي علـل لها عدم إمكانيـة رؤية المدير لكونه في مهمة رسـمية بالرباط، وبـرَّر ما يقع، بعدم صـبر الأُسَر، وكثـرة المرضى والجرحى وقِلَّة الأطر من الأطباء. "سـلوى يـا سـيدتي... إن المـرضى يشـترون القطـن الصحـي وخيـط الجراحـة والضـمادات للعمليـات... إننـا الضحيـة ولسـنا الجـلاد...."! وضعت سـلوى يدها على خصرها ودنت بوجهها منه وقالت: "المراحيض تفيض بالعفونة.... والرشاوى..."! أجابها بهدوء: "ما العمل...؟! الناس ليس ككل النـاس... لا يفرغون المـاء.... ويقضون حاجاتهـم أينما بدا لهم... وميزانية مـواد التنظيف ضئيلة... أما الرشـاوى.... فهل عندك دليل... شـاهد مثلا...؟!" بغضـب ذكَّرتْه بوجـود الكامـيرات في كل مكان فردَّ وهـو يحرك رأسـه: "كلها تقريبًا خارج الخدمـة... ولم تُصرف بعدُ ميزانية

الصيانة والإصلاح.... تعالي.... تعالي... نحن في خدمتك...". وسألته عن جهاز الفحص الرنيني المُعطَّل في أكبر مستشفى بالبيضاء، فانتفض غاضبًا" من قال ذلك...؟! جهاز الفحص الرنيني يعمل... ليلًا ونهارًا... كذبوا عليك..."!

غادرنا المستشفى تاركين وراءَنا العويل والنحيب، وعالمًا اختفت فيه الرحمة والرأفة، تركنا فضاءً يرشح برائحة الموت، ضاقَ بالمرضى، وضاقت الصدور فيه، كما ضاق أمل الحياة والنجاة، تحلق فوقه الغربان والعقبان، قد تلد فيه النساء على الرصيف، ويموت فيه جريح نزفًا في انتظار طبيب مغلوب على أمره من الاكتظاظ وقِلَّة الموارد والوسائل.

اليوم... لأول مرة أرى الدموع في عيني سلوى، حفرَتِ المشاهدُ المؤلمة في روحها عميقًا، وأذكر أنه كان لها أخٌ وحيدٌ مات في حادثة سير، ولا أظن إلا أن ما عاشته اليوم نكأ الجراح وأنعش نار الذكرى المؤلمة، فجاش صدرُها، وضعت رأسها بين يديها وبكت حتى غُصَّت وهي تقول باضطراب: "إلى أين نحن نسير...."؟!! ربَّتُّ على رأسها لأُواسيها ونفسي وقلت بصوت خفيض: "الباب المسدود... إلى الحائط.... العبث"!!

الباب الثاني

ليس العالَم كما يبدو

سُئل شيخ تجاوَز الثمانين سنةً عن سن الشيخوخة فقال: "يشيخ الإنسان حينما يبدأ في طرح مثل هذه الأسئلة الخرقاء...".

الراوي: مصلح أحذية في حَيِّنا

١

هـا أنـت يا حبيـبَ العمر مُسـجًّى على الفـراش الذي جمعنا سـنواتٍ طويلـةً، قبل أن تزهد عنه وتهجره، نعم...! خذلك جسـدك تلك الليلة، كما تخذل الأجسـاد كل الرجـال، لأننا كائنات إنسـانيَّة وجدانيَّـة عقليَّة، والجسـد غـير قـادرٍ على تدبـير الحيـاة بشـكل سـويٍّ والعقل مُشـوَّش، والوجدان في وجعٍ، والنفس تنزف...!

هـا أنـا أنت ترحـل ومعـك كلُّ ألغازك التـي لم أجد لها حـلًّا وظلَّت شـفراتها عصيَّـة على الفَـكِّ، عزلْتَ عرقَـكَ عن عرقِي، وعـلا جدارٌ بين رُوحَيْنـا حين فصلتَ بيننـا بسرير زائد قضَّ كبريائي، نأيـتَ بعيدًا بليلِكَ عن ليلي، فمسـحت المسـافات شـغفَ الأفرشـة، وأخرسـتَ مـد البحر والشـجر، ولزمـت أنا الصمتَ خوفًـا أن أنكأ جرحًا خفيًّا عـليَّ، أو أدنو بأنفـاسي وهواجسي من مناطق ملتهبة في نفسـك وعقلك، فأُعمِّق الحزن والوجع.

منذ زهدت عن فراشي أدبرَتِ الحياة، وتسلَّل الخوف إلى قلبي، ووجد اليأس ذريعتَه الحاسـمةَ ليستقرَّ في تفاصيل أيامي. ها أنت مُسجًّى، وآخر كلماتـك لي بالأمـس وأنت تحفرها حفـرًا على الورق كأن جسـدكَ لم يعُد مِلكك، أو كأن الشـلل النصفيَّ أخذ كل أنفاسـك وحياتك، فليس هناك نصـفُ حياةٍ يناسـب نصف جسـد مطيـع ونصفًا آخر خـارج الخدمة... كانـت الحياة بـلا معنًى مَنفًـى، حياةً مزيفـة الجبهة، والمعنـى في الحياة أن

نكون مع الآخرين... أن نؤمن بالأُسرة، بالأمومة..... بالأبوة.... بدفء الأجداد وأساطير الجدات... أن نتزوَّج ونحتفل... أن ننجب الأطفال ونحتفل... أن نحتفل بأعياد ميلادهم... أن نحتفي بخِتانهم... بأول يوم مدرسي لهم... بأول يوم يصومونه.... بأول جلباب، أول قفطان لهم في الحياة... أن نحتفل لأول صلاةٍ لهم في المسجد... أن نحتفل لأول فرحة يزرعونها في حياة الناس... أن نحتفل بأعياد الزواج... أن نصنع الأحداث لنفرح... الحياة في أوج تجلِّياتها وليمةٌ تجمع القريب والبعيد، مائدة نجلس حولها ونحكي... ونُنصت... نُثرثر... الذين لا يتكلمون ينتحرون.... الذين لا يفرحون ليومٍ جديدٍ يموتون وحيدين... معنى الحياة أن نكون مع الآخرين.... أن نفرح معهم... أن نتقاسم حلمًا... همًّا... طريقًا.... وجبة...!

كانت ليلة رحيل صفاء صعبةً ومُرَّة، صعبة لأنكَ لم تكن مهيَّئًا لرحيل ابنتك الوحيدة لفرنسا... كانت وحيدتَكَ وصديقتَكَ... ومُرَّة لأن برحيلها ستتغيَّر عاداتك ومواعيدك ومحطاتك...

ها أنت مُسجًّى على الفراش الذي هربتَ منه حيًّا وعُدت إليه ميتًا، بلا شهوة، ولا نزوة، ولا أحلام، ولا كوابيس، حاولت أن أتفهَّم الأمر، لكني لم أجد جوابًا حتى كدتُ أكره ابنتي صفاء، بل شككتُ في وجود شيء غير طبيعي بينك وبينها، اعذرني...! فأنا مُثخَنة الجراح، وقادمة من ماضٍ جريح يشعرني بالعار والألم، فقد فتحت عيني على رجل أناديه أبي،

وحين بدأت الأنوثة المبكرة تنحت جسـدي، لمسني الوغد... عبث بي... أتعلَـم ما الذي حماني منه في آخرٍ...؟ هاتـف صلب من النوع القديم.... ثقيـل وقوي كهاتفنا.... كان على منضدةٍ قُرب سريري... فهشـمت أنفه وجبهتـه به... صرخ وهرول كذئـب يُطرَد بالعصا مـن زريبة الأغنام... سأبوح لك بشيء.... أمي... حين سمعت صراخه، هرعت إليه لا إلي.. ضمَّدت جراحه وتركت جرحي ينزف... ولم يندمل الجرح أبدًا..!!

ها أنت مُسجًّى على الفراش الذي كان أكبر أمانيَّ أن تكون فيه ومعي، كيفما كنتُ... وكيفما كنتَ أنت... فهجرك له كان منصَّة إعدام، وفي أول ليلـة بدونـك في الفراش، سـمحتَ للشـيخوخة أن تقتحم قـلاعَ الحياة، لوهمها أن يحفر بعيدًا في العقل والنفس بفأس الزمن، وعداد الشـيخوخة ليس الزمن، بل الأحلام... مَن يعيد لي أحلامي لأسترجع عنفواني...؟!

ها نحن معًا... أنا أغزل ثوب الوداع القاسي، وأنت حيث أنت تُلوِّح لنا بحب وحنان... ستوارَى التراب أنتَ، وسأهوي أنا في نفق النسيان... لا أحـد خُلِق ليعيش وحيدًا... الوحـدة في الحقيقة قاتلة، وحكم بالموت جرعـةً جرعـةً... كنـت أظنها مـلاذًا، لكن بعـد التقاعد شـعرت بثقلها وآلامها... سـنوات العمل بكل عذاباتها تُربِك الرتابـةَ وتفتح أبوابًا على الناس والحياة.

لم يكن أحد يظن أنه سيعيش سنةً بعد الحادثة، فقد شُلَّ عدنان نصفيًّا وأخرجتُه من المصحة إلى الشـقة، كتـب كثيرًا وبصعوبة وهو يغلق الباب

عليه، أحيانًا يُمطِرني بطائرة ورقية عبارة عن قصيدة غرامية وكثيرًا يكتب ما لا أقرأ!!

لم يفتح عينيه صبيحةَ يوم ١٩٩٣، رحل في صمت تاركًا لي ديوانَ شعرٍ مُهدًى إليَّ، كلُّ قصيدة على شكل طائرة ورقية، وخلَّد القطَّ الأسودَ شعريًّا في قصيدة عنونها: "الزائر من وهج" لأنه أحب هذا القط الذي لازمه أيامًا طويلة حتى سماه "قزحًا".

أنا حزينة جدًّا... وقزح أيضًا.... والربيع كأنه في حداد، وقد سمح للمطر أن ينهمر رذاذًا وللغيوم أن تسجن الشمس في عتمةٍ عابرةٍ..!

أنا حزينة.... أبكيه بصمتِ الراهبات... أودِّعه بصبر أمهات الشهداء، أَنعيه بلغةِ الفجيعة، أندبه شقوقًا في الروح والنياح في مُدُني الداخلية... وسآخذ كل وقتي.. كل وقتي.. لأنام معه ورأسي على نحره قبل القيام بما يجب القيام به.

أول الواصلين سلوى، بكينا معًا قبل أن يختلط الدمع الصادق والدمع الزائف، في وجوهٍ ستأتي للعزاء وقلبُها غير سليم تقوم بالواجب لا غير... مسحَتْ مخاطها بمنديلٍ وقالت ولم تتحرر بعدُ من شهقة الجياش:

- متى رحل...؟!

- لا أعرف... نام ولم يصحُ..

- مات حتمًا بلا ألم...!

- ربما... بل حتمًا... لأنه نام بجانبي... بعدما تابعنا معًا فيلمًا... وتحدثنا... أتعلمين أنه قال لي ليلتها بعفوية: "لا تصدقي كل ما يمكن أن يُشوِّه سمعتي يومًا ما... فأنا لست كاملًا لكني لست شريرًا... لست قديسًا لكني لا أجيد الكذب والخيانة.."

- هل أخبرتِ أحدًا...؟

- ليس بعدُ... أريد أن أتمالك نفسي لأفكر بدون عقل مشوَّش، في الحقيقة لا أعرف ما يجب فعله...!

- نتصل بالزميل "سي حسون" فهو خدوم في مثل هذه الحالات...

- اتصلي به رقية...!

أما أنا فقد اتصلت بخالي سي موح حيث تعيش أمي في كنفه وكان بكرًا ووحيد جدتي، ونعيت له رحيل عدنان، سمعت أمي تندب ووصلني نياح أهل الدار، قالت لي وهي تولول:

- أنا مريضة... ربما مرض الموت.... قد لا أستطيع الحضور، كُونِي قوية، وأشرفي بنفسك على كل مراحل الدفن والغسل، اسمعي الكلام واحفظيه...! نظفيه أنتِ أولًا من بول أو غائط... فحرُّ الموت عاصرة... ومَن يدري...؟ أغلقي فمه بربط الفكين قبل أن يتيبَّس ويَعسُر الأمر... وأغمضي عينيه.... وضعي قرصي قطنٍ عليهما، بَخِّري غرفتَه، وشغلي مروحة... وغيري ملابسه وعطريه جيدًا، ثم اطلبي مُغَسِّلًا تقيًّا، ولا

تتركي امرأةً تتكفل برمي الحنوط والصابونة، فلا نعلم ما تفعل بها اللواتي لا يخفنَ الله، خالك إدريس سيأتي وزوجته، وربما يأتي معهم ابنه سي محمد أما ابن خالك البكر فهو لا يغادر البيت منذ سنين...

- سأفعل أمي... سأفعل... سأفعل...!

حينما هاتفت صفاء ابنتي أخبرتُها بموت أبيها برباطة جأش ورغم ذلك غلبتني دموعي وجاش صدري... انهارت فانهرت لانهيارها، وسحَبَتْها أصولها وفطرتها الأولى نحو البكاء الصاخب واللطم، وطفقَتْ تُولول وتندب وتشقُّ ثيابها حتى أغمي عليها.... شدَّ أزرَها زوجُها موريس، وسمعته يحثُّها على الصبر وارتشاف الماء، ووصلني صوت حفيدي الصغير دانيال بكل ملامح البراءة ودهشة من المجهول، وبكاء أمه بتلك الطريقة الغريبة التي لم يعهدها ولم يعرفها، فالموت سيظل دائمًا لغزًا عند الأطفال، ولا يمكن شرحه إلا باستعارات جميلة أقرب إلى حكايات فانتازية... يبكي لبكائها ويسألها عن السبب وهي تردُّ عليه وتجيش بالبكاء: "papi est parti.... جدك رحل..." لم يستوعب الصغير حجم الخسارة، ولا بكاء أمه على مجرد رحيل جده... وكنا على الصوت العالي، فسمعته يقول لها متوسلا: "لا تبكي يا ماما...!

بابي سيعود بعد رحلته.." هنا تدخل موريس ودعاه ليخرج معه ليشرح له بطريقته، ولا أعرف هل سيقول له أنه عند الله الرحمان الرحيم رب العالمين، وكلنا سنموت، أم سيعتمد على ثقافته المحلية، ويحول

رحلته إلى السماء، كنجمة تنظر إلينا وتلوح لنا وهو معنا ولو رحل، وإن اشتقنا إليه، ننظر للسماء ونكلمه فهو يسمعنا... لا أعرف كيف يمكن تفسير الموت لطفل عالِق بين ثقافتين....؟!

ألحَّتْ بعدم دفنه حتى تحضر، فرقَّ قلبي ولانَ، وانتظرتُ عودتَها. تطوَّع سي حسون وذهب ليحضرها بسيارته وزوجَها وابنَها وحماتَها وحماها من المطار ليلًا.

شغلني شكلها وشكل زوجها عن بكائها ونحيبها، فابنتي غيَّرت شكلها بشكل غريب، غطَّت شعرها وكافة جسدها بلباس فضفاض إلا وجهها وكفيها، وأطلق موريس لحية طويلة، واتخذ اسمًا جديدًا "يوسف". تملَّكني الذهول كيف لابنتي المشاغبة الشغوفة للحياة أن تتحوَّل هكذا وتحول زوجها معها...؟ وجه بلا مساحيق عينان بلا عدستي زينة... ويوسف سبحان الله زيَّنَتْه اللحية... انفردت بي سلوى وقالت باستغراب: "ابنتك... أصبح زوجها كالخاتم في الإصبع أدخلته الإسلام..."! ثم لوت شفتها وأردفت: "من كان يدري أن هذه الشابة المتحرِّرة تختار ستر الرأس و..... و.... "!

دعتني صفاء إلى الشرفة، وعلمتُ أنها تريد تجاذُب أطراف الحديث، قالت بحزن:

- أتعذَّبَ...؟! كان الأمر مؤلمًا؟!

فكرتُ مليًّا ومن أجل سلامها النفسي قلتُ لها بهدوء:

- تعشَّى ورأينا فيلمًا معًا ونام... لكنه لم يصحُ...!

- أمات في سريرك...؟!

- نعم... منذ شُلَّ صِرنا ننام في فراش واحد...

- هل كنتِ متسامحةً معه...؟!

- على ماذا..؟!

- لقد هجر فراشك ليلة سفري.

- أظن أن لكِ يدًا في الأمر... كنتِ بالنسبة إليه أكثر من ابنة... صديقة.... ربما استغلَّك...

- ماذا تقصدين.....؟! أجننتِ؟! كان أبي لا غير... وأعظم أب... أتظنين أنه أساء إليَّ كما فعل بك زوج أمك معك؟! إياك أن تفكري في الأمر...! إياك أن تخلطي الأمور... أجننتِ...؟!!

زيَّفتُ الموضوع واخترعتُ تأويلًا آخر:

- استغلَّكِ... لا أقصد ما فكرتِ فيه.... بل استغلك في التستر على أسراره...!

- إياك يا أمي أن تظني الظنون بأبي.... فقد كان أعظم وأحنَّ أبٍ...!

تنفَّستُ الصُّعداء، سحبتُها إلى حضني وقلت: "تعلمين الظروف التي مررتُ بها... حتى صرت متوجِّسة بلا حدٍّ.. أبوكِ مات مرتاحًا....

وكتـب عني ديوانًـا.... كان يجاهد ليكتـب باليد اليمنى التي لم تُشـلَّ... وهـو يكره جمع الإبداع والحاسـوب... يُحب رائحة الـورق.... كان كلَّما أتمَّ قصيدةً صنع من الورقة طائرةً وأرسلها لي في الجو..."!

ضحكـت صغيرتي وقالت: "بابا رائـع... لولا...." جحظت عيناي، وشعرت بدبيب الغضب يسري في دمي نارًا وقلتُ بحنق وقسوة:

- لولا ماذا...؟!

- اهدئي يا ماما ولا تتوتري...!

- إذن هناك سِرٌّ كما توقعت... تكلمي.... ! تكلمي.. !

- أمي...! أخفضي صوتك....! الناس يسمعوننا...

- لن أهدأ حتى أعرف الحقيقة... تكلمي...!

- سأقول لك... فقط اهدئي...!

- أوف...! نفد صبري...

- اسمعي ولا تتوتري...! أرجوك....! ليلة سفري... حدثت أشياء غريبة...

- غريبة....! يعني ماذا؟

- لقـد كان لوالدي سرٌّ لم يسـتطعِ البَوح به مبـاشرةً.... لكني فهمت قصده...

- سِرٌّ...! أي سِرٍّ... سُكره...؟! ثمالته...؟! حقدَه على المبدعين حدَّ التهجُّم الحاقد عليهم عدا الذين يجاملونه... هذا أعرفه... أعرف مدى حِقده وقُدرته على التدمير... طفولته... يُتمه... أعرف كل تفاصيل حياته... حتى مهنته القديمة المُهينة أعرفها...

- نجوى...! ماما! اصمتي دعيني أستجمع أنفاسي...! فقد بدا لي والدي مختلفًا....!

- تكلَّمي إذن.... فربما تعرفينه أكثر مني... فقد كان يحلو له المقام معكِ!

- هل تغارين يا أمي من ذلك....؟!

- بل أخشى العيون حين تغشى والبصيرة تغلق... وما يمكن أن يقع من آثام واستغلال!

- أنتِ تهذين.... وكلامُك يحمل آثار طفولتك... وقد سمعتُ الأمر منك مئات المرات.. ولولا رحمة الله ما سمحت لرجل أن يكلمني...

- ماذا قال إذن...؟

- حدثني طويلًا مضطربًا خائفًا... انتقل في حديثه من موضوع إلى آخر... أحسستُ به لا يجد طريقًا ممهَّدة للموضوع الأصلي الذي جاء للحديث عنه... تحدث بألم عن طفولته وأثر موت

والديه المبكر، تحدَّث عن صباه بالبادية حيث شبَّ عند عمِّه ببادية الشاوية، تحدث عن دراسته كثيرًا ونضاله مع اليسار في الجامعة، اليسار المتطرف الذي كان يرى في المَلَكية خصمًا... تحدث عن آلام السجون، وعذابات المعتقلات، ثم كيف أصبح يؤمن بالتغيير الديمقراطي... دخَّن ليلتها كثيرًا حتى فاضت المرمدة... أصابعه ترتعش...

- ما من سِرٍّ في الأمر.... يا صفاء... ؟!

- تريثي يا أمي...! في لحظةٍ ما قلتُ له وأنا أطبع قبلة على جبينه: " أنا فخورة بك وبتاريخك يا أبي..."

- ابتسم في وجهي وقال: "حتى ولو كنت خائنًا" قلت بغضب: "الوطن... لا... أمثالك لا يخونون الأوطان..؟"

- نظر إليَّ متفرِّسًا في وهمس: "والزوجات....؟" لم أردَّ يا أمي خِفت من أن يكون خانك.... لكني قلت: "ولا الزوجات...."!

- هل خانني مع امرأة أخرى...؟ فالاحتمال وراد... فهو سِكير عربيد... وما فتئتُ أشمُّ عطور النساء في جسده...

- لا أعرف أمي... فقد تحدَّث بشَغف مشوب بقلق عن دورك الجبار كأم وزوجة... لكنه كان كأنه يتحدث عن امرأةٍ أخرى... وفي لحظة أشعل سيجارةً ونظر إليَّ بوجوم وأسًى وأردف: "ماذا

سيكون موقفك... لو كانت الصورة التي تعرفينها عني مزيفة.... كأب حقيقيـة.... ولكـن في عـالم الظـل خائـن يسـتدرج طالبةً إلى فراشه...."؟!

- لم يعترف.... بل افترض...!

- بل اعترف... لكن بلسان ناعم...!!

قلت بحزن ويأس وأنا أكبح دموعي:

- هل خانني....؟

- لا أعلـم... ولكنـه احتـمال كبـير وارد، والأشـق مـع طالبـة مـن طالباته... فهذا استغلال واستعباد...!!

- إن لم يساومها على شيء.... أو هي مَن استدرجته...

- أمي هذا احتمال فقط.... لكني حدستُ أنه يلمح لشيء ما خطير... أجَّلـت التأويل وقلـت له بحدَّة وغضب: "مـن يفعل ذلك وضيع وحقير... لوكان أبي لطلبت منه أن يطلق أمي... المرأة الفاضلة فهو لا يستحقها... أو يهجر فراشها.... فالخبيث والطيبة لا يجتمعان في فراش واحد.."!

- نظر إليَّ نظرة عميقة... سـالت عيناه بالدمع... وقال بحزن عميق: "سـامحيني يا ابنتي....! ثم ضمَّنـي وودَّعني... وحين علمتُ أنه هجر فراشك... أيقنت أنه هو الفاعل... فصُدِمت صدمةً كبيرةً...

بكيتُ كطفلة ضائعة في ساحة حرب، وقررتُ أن أعاقبه بالتجاهل التـام... أقـلُّ مـا يمكـن فعلـه هو عـدم السـؤال عنه... محـوُه من حياتي... لقد خانكِ يا أمي... عليك التعامل مع الأمر بثقة، فالخ

–

–

–

–

–

–

–

–

–

– يانة لا تعني أن الآخر به نقص أو شيء ما.... الخيانة شهوة مدمرة، أو مجرد نزوة...!

– للأسف يعوزني اليقين.... وهذا جحيمي المفتوح...

– ارمي بالكل في القبر الذي سيواريه... وابدئي حياة جديدة...!

– وهل تظنين أن عقلي سيمنحني هذا السلام؟!

– نعـم... ممكن... لو أبعدتِ كبريـاءكِ عن الموضوع... حينها عيشي حِدادًا طبيعيًّا...

- يـا ليتني...! فمثل هذه القضايا لا نحسـم فيهـا بالإرادة فقط... لا أملـك القدرة للمُضي قدمًا.... سـأحاول التجاهل... النسـيان... علّنـي أربـح معركـةً شرسـة ضـد الـذات والفضـول والغريـزة والرغبـة..... أنا يا ابنتي مجرَّد امرأة خانها ربها... زوجها... وعمل بنصيحة ابنته فنفى نفسه بعيدًا عن سريري....

- هل علي أن أكرهه....!؟

٢

لقـد رحلَ إلى مثواه الأخير، وآخر شيء فعل بشـغف كتب قصيدةً لي وجعلهـا تحلّق عاليًا على ورق طوَّعَه طائـرةً ورَقيَّة، قام بالعملية عشرات المـرات، في كل كـرة تصلنـي القصيـدة يطلبهـا ليجعلها تسـبح في الهواء ويجاهد بأنفاسه الضيقة ليجعلها تنطلق بقوة.

هـل علـيَّ أن أغضـب مـن كونـه ضاجـع طالبـةً مـن طالباتـه بـل طالبات....؟!

هـو الذي وضـع القواعد منـذ البداية، فقد تزوَّجـت مناضلًا يرفض استـعباد النسـاء، ناضل في جبهة الحريـة والكرامة وأدَّى الثمـن غاليًا... هو الذي حدد خرائطنا منذ التقينا... كان شـابًّا نجا من التحطيم النفسي والجسـدي بمناعتـه الروحيـة ورُقيِّه الخُلقـي ووفائه... هـو الذي وضع القواعد لمعبد الفضيلة حين التقيتُه شاعرًا تهرُب منه القصيدة إن لم تنَمْ في سرير الشعوب، وتنضج فاكهتها تحت شمس الوفاء والبهاء...

الخيانـة مؤلِـة، لأنها خنجـر بحدَّيْن يطعـن الخاصرة ويفتـك بالكبد، وخيانته مزدوجة... خان نفسَـه... خان ماضيه... خان معبدَه... ممارسة الجنس مـع امرأة أخرى أخـفُّ الوجع... لكن مع تلميـذك...؟ عجنت العار بالخيانة... والجبن بالشهوة....

يعني هذا... أن عالمي ينهار، وعليَّ أن أحرق كل الطائرات الورقية...

وأرتب عالمي الداخلي حتى أجد دربا آمنا للعبور نحو ضفة السكينة...ما أقسى الخيانة حين تبرر بالضعف، وتعلق على مشجب الآخر...!

هل كان على ابنتي صفاء أن تسرق القرار مني...؟! كم كانت غبية...! فحين هجر عدنان فراشي عاقبتني أنا... وليس هو... آه... المسكينة لم تعلَم مدى الأذَى الذي أصابني من الأمر، في مرحلة عمري يشقُّ فيها الشك طريقَه بسهولة... وصفاء منحت الشكَّ فأسًا وبعثرت معالم روحي...

سلوى ترى القضية من منظور غبي... نعم من زاوية تافهة ضيقة حد الضجر، فحين أخبرتُها بالأمر وضعَتْ يدها على خصرها وقالت بحدَّة: "العاهرات الصغيرات، يُسقِطن الأساتذة في فخاخهن ثم يأخذن ما يردن... أنتِ لا تعرفين كيف أصبحت الجامعات... فتيات يَستمِلنَ أساتذتهن بالعري واللباس الضيق والكعب العالي واللكنة الفاحشة... وبعض الرجال يسقطن في الشرك الذي نُصب لهم.... أظنه هو الضحية... "!

ها هي زميلتي وصديقتي الوحيدة تواسيني بالعبث... نعم قمة العبث... ما أسهل أن تحوِّل الضحيةَ إلى جلَّاد حين تنحاز للذات وتُسقط حرمانك وعُقَدك على الموضوع...! أعلم أنها غاضبة... أعلم أنها تشعر بخيبة تقدُّم السن... أعلم أن عدم تقدُّم أحد إليها يُحرجها وإن ادَّعت العكس، وإن بررت الأمر برغبتها واختيارها، أعلم أن الرجال

لا يستلطفونها، ليس فقط بمقياس جمالي، بل لأن طبعها حادٌّ وذكوري، حِدَّتها وشغَبها وتطرُّفها في ردود الفعل يُبدِّد أنوثتَها، الرأسمال الحقيقي للمرأة هو أنوثتها، والأنوثة عند كل امرأة، حرارة الأنوثة هي التي تجذب الرجال للنساء لا الجمال، فالجمال البارد جمال تافه، لهذا كلما حاولت المرأة تبنِّي المساواة بمنطق فيزيولوجي نفسي لا حقوقي واجتماعي، ضاعت منها أنوثتها، وسلوى امرأة وفيَّة صادقة، لكنها تماهت مع الحركة النسائية حتى نسِيت رأسمالها الأصلي، أنوثتها... نوعها الناعم دون ضعف... جنسَها الفاتن دون خنوع... جعلت من الرجل ندًّا وخصمًا، فخبَتْ جذوة نارها وسط مجتمع الرجال، وها هي تقسو على بنات جلدتها، فتُحمِّل الطالبةَ مسؤوليةَ الغواية والخطيئة، وتناست أن عدنان هو مَن كان مُمعِنًا كفايةً سياسيًّا ونفسيًّا وتاريخيًّا وزمنيًّا ضد الغواية وشراك النزوة، وأن الطالبة التي ضاجعها هي ضحية منظومة تربوية فاشلة، وضحية سياق سياسي متعفِّن يُنتج مثل هذه القيم... لهذا لم أزكِّ وِجهةَ نظرها، رغم أن امرأةً جريحةً في وضعي في حاجة إلى رؤية سلوى ولو للعزاء والمواساة..

وسلوى امرأة جريحة... مصابة في كرامتها وكبريائها... لهذا فقدَتِ البوصلة... وموضوعية الرؤية... يا ليتها تتصالح مع أنوثتها لتواجه العالم امرأةً تجيد مُصالحة الجانب الناعم فيها مع قوَّة عقلها وعُمق أفكارها وقضايا المرأة...!

غضبت سلوى من تحول صفاء وأظهرت ذلك في حوارها الحاد معها، استغلَّت الفرصة حين أُتيحت لها، فقد كانت تتربَّص بسلوى، وكنتُ على يقين أنها لن تدعَها تسافر دون أن تناقشها في تغطية الشعر والملابس المهلهلة والتزامها وزوجها الفرنسي بالصلاة، فحين جلسَتْ صفاء لتوديعي والعودة لفرنسا، كشَّرت عن أنيابها وقطَّبت جبينها ولوت شفتها ساخرةً وقالت لها:

- في المرة القادمة حينما تعودين للمغرب... البسي خيمة سوداء يا جارية...!

رأيت الغضب في عيني ابنتي، وانتظرتُ صِدامًا يقدح شررًا، لكنها يبدو أنها تمالكت نفسها، وأخذت وقتَها لتردَّ عليها بعدما لعنت الشيطان وحوقلت قالت بصوت هادئ وخفيض:

- يا خالتي... ! ربما أعود أنا وأراك في ثياب نسوية لا أقل..

- ماذا...؟ ألا يعجبك لباسي..؟!

- هو لباس الرجال لا النساء... ولا أظن أنكِ ستهزمين الذكور بالتشبُّه بهم...

غضبَتْ غضبًا شديدًا، ووجمت حد القبح وصاحت:

- أتسمعين كيف نادتني.... خالتي.. خالتي...؟! تجاوزت الأمر وقلتُ لا مشكل... فهي لا تعرف أنني في مقام أختها الكبيرة...

ثم تجرَّأَتْ عليَّ وتتهمني بالاسترجال... الاسترجال يا نجوى... اسمعي ما تقول ابنتك....! مَن يدري، فربما تظن أنني سحاقية في عقلها..!

نظرتُ إلى سلوى نظرة ساخرة في محاولة مني لأمازحها وأخفِّف حدَّة التوتر وقلتُ مبتسمة وأنا أربِّت على صدرها:

- وهل تخافين يا متحرِّرة من أن تكوني سحاقية...؟!

- نجوى....! كوني واقعية... مَن يجرؤ على القول إنه مثلي عدا الذين أغرقوا جميع سفن العودة للوطن، وذهبوا للغرب...؟! ومَن يعيشون بيننا هم من أوساط مهمَّشة... وغالبًا بلا أُسَر... وفوق هذا لو كنتُ سحاقية ما فكرتُ في الرجل... ولا في الزواج..!

- وهل تفكرين في الزواج؟!

- طبعًا...! كأي امرأة... لستُ سحاقية... أنا متحرِّرة فقط... نجوى، يا أختي بعض أسئلتك مستفزَّة..

حاولتُ أن أوازن النِّقَاش، فوجهت عتابي إلى ابنتي:

- يا صفاء...! سلوى ما زالت شابة ولا يمكن أن تكون في مقام خالتك... وهي حرَّة في لباسها... ولباسها لا يجعل منها مسترجلة... هو خيارها.... والاسترجال سلوك لا زي..!

انتفضَتِ ابنتي غاضبةً حتى دلقت فنجان القهوة وقالت:

- إذا كانت هي حرَّة في لباسها فأنا أيضًا حرَّة في لباسي.... ما الذي يثير الفضول في هذا المنديل الذي سترتُ به شعري.... وها وجهي سافرًا.. وكفى... ! لا أريد وصاية على ما أومن به.

قالت سلوى وهي هي ترفع حاجبًا بمكر:

- لا غير صحيح..!. فرنسا تحارب الحجاب والنقاب والبرقع والخمار بشتى الطرق، وتعدُّها علامات دينية، ولا يمرُّ يوم دون أن نسمع ونرى حوادث عنف ضد النساء المتحجبات...!

دنت منها صفاء وقالت بهدوء:

- وما رأيك يا أختي الكبيرة... هل أنتِ متفقة مع ما يفعلون...؟!

صمتت سلوى لحظة وشردت كأنها أُحرجت وقالت:

- فرنسا دولة علمانية ولها أن تفرض قِيَمها بالقانون... وهي ترى في ذلك علاماتٍ دينية، وعلى هذه القضية يزحف اليمين القومي ويلعب لعبتَه اللعينة بالتخويف من أسلمة فرنسا، فينمو الحقد والضغينة... وتصير المحجبة هدفًا لعنف تمييزي... لهذا لا يجب تقديم هدية لليمين المتطرف الهوياتي ليخنق الديمقراطية بأدواتها...!

- ولمَ يسمحون للراهبات بلبس ذاك اللباس الموحَّد والتجول في الأحياء ودخول المؤسسات...؟!

- لأنهن راهبات... تفرغن للعبادة...

- ونحن في الإسلام... النساء كلهن راهبات... بِعْنَ أنفسهنَّ لله ونِعْم التجارة... وإن لم يحرمن أنفسهن من دنياهن... فلا رهبانية في الإسلام... فالأصل هو الحشمة أما العري فهو النشاز...

- من أراد ذلك فليبقَ في وطنه... هو الأجدر به ليضمن له حرية معتقده وشعائره... ولباسه الديني...!

- وأخيرًا يا سلوى تكلمتِ كفرنسية تبلغ ثمانين عامًا وأقنعوها أن الإسلام هو القتل والدم... وأن فرنسا بعد سنين ستصبح دولة إسلامية... فنحن نلِدُ ونتزاوج... خلافًا لهم.... وهذا رُهاب غربي... ألا يُفترض أن من مبادئ العلمانية الدفاع عن حق الأقليات في ممارسة شعائرهم... يا سيدتي لباسنا جزءٌ من شعائرنا... بعِفَّتنا وحيائنا وسترنا نعبد الله مخلصين له النية!

- لا...! لا تخلطي الأمور...! من حق أي دولة أن تفرض قانونها وقيمها ومفهومها للمواطنة على مَن يعيشون فوق ترابها...

- نعم... صدقتِ، ومن قِيَم العلمانية حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية...

- لم يمنعوا أحدًا من الصلاة ولا بناء المساجد..

- العبادة ليست المسجد والصلاة فحسب... العبادة في الإسلام تبدأ

بتقولين صارمة في اللباس، تسري على الذكر والأنثى، الحشمة العفة ليستا تهم ولا سبة، أنت لا تعرفين دينك... فأنا أعبد الله بعفَّتي وحِشمتي وحجابي... ولم أغطِّ وجهي... فقط غطيتُ شعري ونحري... وساقَيَّ...

كان عليَّ أن أتدخل لأُنهي هذا النقاش الذي سخن وغدا بلا مخرج، فقلتُ مبتسمة:

– الأمر صعب الحسم فيه... أنا أريد أن أعرف فقط كيف أسلم موريس...؟!

ردت صفاء بغرور وثقة:

– الأمر سهل... امتنعتُ عن الرقص مع أصدقائه والأغراب في المناسبات بأدب طبعًا دون تجريح ولا عنف مبطن... وامتنعت عن شرب أنخاب الخمر... واشترطت قبل الزواج نظامي الغذائي وفق عقيدتي، صُدِموا في البداية لأني تفاديت فوضى القبل والعناق والأحضان إلا مِن محارمي... وكنت صادقةً ومُخْلِصة في عملي حتى ضاعفنا عدد الزبائن... كان موريس يتابع الأمور بصمتٍ وإعجاب خفي، وذات يوم حاول أن يفهم بعض الأمور، كالسلام بالوجه الذي أرفضه والضم والعناق... قلت له بيقين إن من تعطي الجزء تعطي الكل، وجسدي لزوجي فقط، وعدم شربي الخمر لأنه حرام وخراب ودمار، ويفسد العلاقات، ويسهل الفاحشة، وأعطيته أمثلة كثيرة... وحين أخبرته أن شريعة اليهود التي هي

أيضًـا شريعة النصـارى إلا في تفاصيل صغيرة تُحـرِّم الخمر ولحم الخنزير والزنا والكذب والزور وتُلزم المرأة بالعفة والحشـمة والستر... لم يصدق في أول الأمـر حتـى بحـثَ واسـتقصَى...علَّمتُه إسـلام المحبَّة والسـلام والإنسـانية والرحمـة والتسـامح والتعايش وضمان حقـوق الناس بغضِّ النظر عن مِلَّتهم وعِرقهـم وأصلهم ومكانتهم الاجتماعية... وأن ما يراه من صور للفتك والسـحل والحرق والقتل ظلما ليسـت من الإسلام ولا قيمه... لأن النفس غالية في الإسـلام... فمن قتل نفسًـا بدون حق كمن قتل الناس جميعًا... و قوة الإسلام في قِيَمه وقدواته ورموزه الحقيقية، أما مـا يُـروج له لجعله دينَ الدم والقتل فهو مجرد هجوم شـنيع على الحضارة الإسـلامية.... وخلـط للأوراق.... فطال صمت زوجـي أيامًا ثم تحول للإسلام بإرادته.

قلت بخوف وحيرة:

– مـا يخافه الغرب... ازدياد عدد المسـلمين بمجتمعاتهـم... وبالتالي أفـول الحضـارة الغربيـة وهزيمتهـا في مواجهـة مـا تسـميه الخطر الأخضر..

– الخطر يا ماما آتٍ من رؤية غير صحيحة للأسرة والمجتمع والحرية وقضيـة الحريـات.. إنهـم يُنهون زمـن الأمومـة والأبـوة ومفهوم الأسرة... إنهـا فعـلًا مجتمعـات مهـددة بالشـلل العاطفـي مليئـة بالتناقضـات والمفارقات الغريبة... لا أعـرف أفق هذه التحولات السريعة المخيفة..

أردفَتْ قائلة:

- لكل مجتمع قِيَم وخيارات أخلاقية... فالمثلية هناك قضية إنسانية وهنا جريمة وشذوذ....من الصعب أن تحدِّدي موقفًا نهائيًّا وأنت تعيشين معلقَّة بين حضارتين.. بل بين ثقافتين..

- يا ماما... الجنس الثالث سماه الفقه الإسلامي الخُنثى... وله فقه وأحكام خاصان به من حيث الميراث والزواج والعمل... الإسلام لم يكن متخلفًا... كانت له الجرأة منذ القرن الثالث لطرح قضايا الجنس والمرأة بل والجماع والخنثى... وناقش الحب بجميع أنواعه... كتاب طوق الحمامة شاهدٌ على تحرُّر العقل الإسلامي... ما يقع في الواقع من دماء ودمار لا صورتنا الحضارية، نحن أمة تبني وتسامح... لا أمة حرق وهدم تختزل في كليشيات دموية..

لاذت سلوى بالصمت، ربما غفت لا أعلم... وقفت منتصبة وهي تردد:

- والآن انهضي يا فقيهة لأوصلكم للمطار قبل أن تُقلع طائرتكم...!

عانقَتْها وضمَّتْها إليها بقوَّة، حدقت بها صفاء ثم قالت ساخرة بمكر:

- حاضر يا خالتي...! عفوًا أقصد أختي الكبرى...

قهقها معًا حتى أثارا حفيظةَ واستغرابَ موريس الذي كان منسجمًا مع عد حبات السبحة فأربكوه، أومأَتْ له صفاء بيدها للوقوف وكلمته

بالفرنسـية" on doit partir..! ابتسـم ابتسـامة جميلة ، فقد كان أزهرَ البشرة، أشـقر الشـعر، وكانت عيناه شـفافتين زرقاوين كلـون البحر... بريقهما مُشـع فيه نظرة طفل لا شـاب في الثلاثين، فـاره الطول، عريض المنكبين، قوي البنية، واسع الجبهة، رقيق عظام الوجه، قليل اللحم دون هزال.

حينما حلَّقت الطائرة في الأجواء قالت سلوى بصوت خفيض «أتمنى ألا تتغـيَّر نفسـيًّا... فوضـع الحجاب في فرنسـا أصبح تحديًا كبيرًا نفسـيًّا واجتماعيًـا... فقد تعاني من الغبن والظلم والعنصرية، وسـوء المعاملة في المواصلات العامة والمرافق العامة والشوارع.... فيتولد عن ذلك حقد ثم تصرُّف غريب... فخيبة كبرى..." رددت عليها بهدوء نفسي غريب وثقة عارمـة " لا أظـن.... فهي تتبنى إسـلامًا معتدلًا وسـطيًّا... أو بالأحرى إسلامًا حضاريًا.... هذه المشاغبة ستخدم أبناء وبنات جلدتها.... وأنتِ مـا رأيـك...؟" رمقتني بنظـرة خاطفة وهي تُغير السرعـة وقالت بمكر: "أنسيتِ أن شعاري هو الوجود قبل الماهية...!؟ دعيها تصنع وجودها بعيدًا عن الأوثان الفكرية..."!

آخـر كلمة قالتها لي صفاء ابنتي همسـا في أذني وهي تضمني بقوة على بوابـة الدخول النهائيـة: "لا تكرهي أبي... أرجـوكِ.... ترحَّمي عليه.... مَن يدري الظرف الذي كان فيه... فأنا غير مقتنعة لحد الساعة بأن طالبة أسقطت والدي في شراك الجنس... هناك حلقة مفقودة يا أمي.... رَحِمَك اللهُ يا أبي...! "

ساد صمت طويل بيننا، في طريق العودة، شعرت بسلوى مضطربةً وهي تقود السيارة، وقد بدأ الليل يزحف كئيبًا، فوداع صفاء لأول مرة كان مُرًّا ومؤلمًا، فكرتُ كثيرًا في حياتي بعد رحيل عدنان كيف ستكون، لعنَتْ سلوى سائقًا متهورًا، وزفرت زفيرًا عميقًا ثم قالت:

- هل أنتِ راضية على تحوُّل صفاء بهذا الشكل المفاجئ؟!

- الأمر لا علاقة له برضاي أم لا... بل القضية قضية موقف ومبدأ...

- صمتُك أربكني... هل أنت متفقة مع قرارها؟!

- أتفق أم لا.... لا يدَ لي في الأمر... هي حرة في اختياراتها... ومبدئيًّا أرى أنها قامت باختيار وتدافع عنه بموضوعية.... وتعلمين أن مسألة الحجاب هي قضية خلافية حتى في الفقه الإسلامي... بين مَن يقول إنه عادة وبين مَن يقول إنه فرض... وحتى في الشرائع الأخرى قضية لباس المرأة قضية خلافية... فالمتشددون اليهود حتى في إسرائيل يعدون الحجاب فرضًا، بل منهم طوائف تُكفِّر إسرائيل كدولة... وتسميها العجل... ولا تمثل اليهود الذين حكم عليهم الله بالشتات إلى أن تتحقق نبوءتهم حسب عقيدتهم...

- نخاف أن تكون هي البداية لتوجه أكثر تطرُّفًا؟

- لا... لا أخشى من هذا... فهي خلال هذه المدة لم تلزمني حتى بمنديل أغطي به شعري... وظللت كما أنا... لم تصنفني

أي تصنيـف.... لم تُكفِّـر أحـدًا... حتـى حمواهـا اللـذان ظلّا على مسـيحيتهما تُعاملهما بالبر والإحسـان.... لهذا لا أخـاف عليها إلا مـن نظرة الآخر.. الذي لا يسـتوعب الإسـلام في جوهره ويفهمه فقـط وفق مـا تصرفه وسـائل الإعـلام الغربية من صور للمسـلم الدموي... ومشـاهد الدمار والفساد السياسي... هذا ما أخاف... لكنها في ذمة رجل منهم هو قادر على حمايتها...

- أفكرتِ فيما ستفعلين بعد رحيل عدنان...؟

- سأستريح لأفكر.... عندي عدد من الملفات تحتاج إلى أجوبة.....

- مثل ماذا....؟

- كيف سقط عدنان؟

- أتشكين في شيء...؟

- مجرَّد فرضيات... عليَّ التحقق منها... فعدنان كان يكتب كثيرا ولا ينشر... أين مسوداته...؟ عليَّ البدء من هنا...؟

- اتصـلي بي إن احتجـتِ مُحقِّقـة...! سـأبيت في شـقتك الليلـة فأهل البادية ما زالوا يتوافدون وطلباتهم كثيرة... وتحتاجين للمساعدة...

- نعم.... Merci...

٣

ظلَّت قضية خيانة عدنان لي مع طالبة من طالباته، تحضُر وتغيب، أكبح نارَها بالتجاهل، حينًا، وحينًا آخر أُفسح لها المجال لتسيطر على عقلي، بعدما تنهكني بالعبور القاسي يوميًّا وخصوصًا لحظة يروم جسدي وعقلي غفوةً ليلة بعد يوم صعب بالأسئلة المغلقة.

مرَّ شهر على رحيله، حاولتُ بكل ما أُوتيت من كبرياء وحتى التوجُّس أن أتجاهل الموضوع، أن أُقنع نفسي بعدم النبش فيه بحجة أن الموت أجدر بدفن الناس والأسرار وأوراق الماضي، وكل حقيقة بعد الموت مصيدة للروح وللقلب الجريح، وربما خوفي من تأكيد الخيانة لي عمدًا واختيارًا وكبريائي كانا يجُرَّان مركب إرادتي الجموح بعيدًا عن رصيف قرار البحث وتسليط الضوء على الأمر.. ما أضعفنا أمام ذواتنا حين يسكننا الفضول ولو كان الطريق يحفُّه الألم والخيبات...؟!

عقلي ماكرٌ وغير متحيِّز لي، بل متحيِّز لمنطقه، للعبته التي يعشقها، فالعقول تعشق المُفارقات، وعكس ما يُعتقَد فالتناغم والوحدة تبعث في العقول الخمول والجفاء، لهذا هي أشدُّ ما تكون حيَّة منتعشة حين تكون النفس مضطربة، والمشاعر مرتبكة، والوجدان قارب ضاع في ليلة ذات ضباب كثيف وموج عالٍ عنيفٍ.

عقلي المتردِّد كان يرمي في داخلي بجُملة من المبررات والحُجج لعدم الاهتمام بالموضوع، ثم يخذلني في لحظةِ ضعفٍ ويدفعني دفعًا للبث

والبحث وإيجاد الأجوبة مهما كانت حارقةً ومعذِّبة.. يلعب لعبته كما قلت... بالتجوال بكبرياء بين الفرضيات والألغاز ومكامن الغموض واللبس، ويباشر ما يعشقه ويجيده، دق طبول الشك، فتح نوافذ الروح على الأهواس، شق الطرق نحو أهداف مختلفة.

"خانكِ مع طالبةٍ، نعم، لم يعترف اعترافًا شفافًا، لكنه كأنه اعترف اعترافًا كاملًا، ليلة قال ما قال لصفاء، وليلة اتخذ القرار بهجر سريركِ... فكأنه أدانَ نفسَه، واختار أحد خياريْ صفاء... الرحيلَ أو هجرَ الفراش... تحاشى في اعترافه ضمير المتكلم... لكن الأمر مجرَّد لعب لغوي... لتخفيف نار البوح بالإثم...". هذا ما ترمي به من حمم الشك والتوجُّس براكين عقلي، في مساحات شكِّي المتعطشة للأجوبة، هذا ما تقذف به أحيانًا... وأحيانًا أخرى تراوغني بِتَتْفِيهِ الموضوع والدعوة للتجاهل... ثم يربح مسافة زمن ليرمي بحمم أخرى، "النبش مغامرة قد تؤدي إلى مجهول مفتوح على الجحيم، رحل عدنان وأخذ معه كل الأسئلة المُرَّة، التجاهل حلٌّ غير مكلِّف ومريح"!!

هل نسيطر على عقولنا....؟! هل نمتلك آليَّة أخرى غير هذا العقل المنحاز فقط لنفسه لعقد التسويات مع منطقه وحدود عمله....؟! العقل... قد يكون أحيانًا أكبر عائقٍ للتقدم نحو المستقبل بمفارقاته التي تخدمه لا المعرفة... أحيانًا، علينا ألَّا نثق كليًّا في العقل، لأنه لا يحمل معه إلا ظلَّ المعرفة لا ماهيتها، فهو يظل في آخر المطاف مجرَّد آلة للفكر لا الفكر نفسه، وكل آلة معرضة للفشل وللأعطاب.

لم يعـد بإمكاني المضي قدمًا دون الكشـف عن الحقيقـة مهما كانت مُرَّةً جارحـةً ومخيفة. فقـوَّة التجاهل كانت أضعف من زلـزال يهزني هزًّا كلما اخترت وأْدَ القضية كحدثٍ ماضٍ، انتهى برحيل عدنان...!

غيَّرت استراتيجية التفكير ووضعتُ عقلي محطَّ نقدٍ، فبعض الخيارات تحتـاج أن يصمـت العقل... والغريـب أن تُعاقِب العقـل بالعقل... وفي نهاية المطاف لا تتنحَّى عما حدَّده من اختيارات واستراتيجيات!!

عليَّ أن أصارح نفسي أنني أميل للبحث مهما كان الثمن، وهذا رهين بـأن أتحـرَّر من مخـاوفي وكبريائـي، وأختار الافـتراض الأقسَـى والمؤلم.. خيانتـه... فكل ما فيَّ عقلًا ومشـاعرً وحدْسًـا وغريزةً ترفـض التجاهلَ ودفنَ القضية برحيله!

غـدًا متهـمًا عندي في كل نَفَس من أنفاسي، ولـه الحق في محاكمةٍ عادلةٍ مع ذاتي، فقد يكون مظلومًا وضحية تأويل شاذٍّ ومنحرف..!

هجـر فراشي في تلـك الليلة ونام في غرفة ابنتنا، وأتـى في اليوم الموالي بسريرٍ فرديٍّ، بررت الأمر حينها بفشـله في إقامة علاقة جنسية، ورددتُ الأمـرَ ، دون أن أُصرِّح لـه ، إلى ألم الـوداع ومـرارة الفـراق، فهـو تربطـه بصفـاء ليـس علاقة الأبوة فحسـب، بل كانـت صديقتَه وحياتَـه ومركزَ الكـون بالنسـبة إليه، بررت خذلان جسـده له بما هو نفسيٌّ: سـفر صفاء المؤلم والصادم له، وبما هو جسـدي، فقد ظهرت عليه بوادر داء السـكر، وكان كثـيرًا مـا يلحُّ عليه البول ليلًا، وهزل هـزالًا واضحًا، وحين أثرتُ

انتباهَـه لمـا يقع من تحوُّلات مريبة في جسـده حاثَّةً إياه عـلى زيارة طبيبٍ، ابتسـم في وجهـي وقال وهو يضيف ثقبًا جديدًا لحـزام سرواله: "ربما هو السـن... لا غير... وشـهيتي ليسـت على ما يـرام... لكني مـا زلت قويًّا كالجمل".

والآن ظهـرت حقيقةٌ أخرى تحاول أن تحـرق كل المُبررات التي مِلتُ لها ليلتَها قبل سماع صفاء... وقد تجاهلتُ حينذاك أن السرير الثاني قتلَنِي واغتـالَ كرامتي، وزجَّ بي في شـيخوخةٍ قبل أن أسـتعدَّ لهـا، فحين اختار أن ينـام في سريرٍ ثانٍ مركونٍ أمام عيني، هزَّني هزًّا حتى خشـيتُ النظر في المرآة، ومُشـط شـعري، وتغيير ملابسي، كان زلزالًا عنيفًا في علاقتنا، إنه القتل المعنوي لكل امرأة، فقد شعرتُ أني صرت خارج الزمن.

غفـرتُ لـه فعلته... ليلتَها... وبرَّرت ما فعل لأني كنت أجهل شُـبهة الخيانـة.... إن لم تكـن حقيقـةً.... كرامتـي لسـنواتٍ لم تمنحنـي رخصةَ الخـوضِ في الأسـباب الحقيقية، خِفتُ أن أُقحِم نفسي في مسـارٍ يؤدي به طواعيةً إلى حبل المشنقة.

ليلتَها... ليلةَ السرير الفردي... تحصَّنت بالأعذار له، ولم أرحم نفسي التي دخلْتُ بها عالمَ الدونيَّة والموت الصامت... اكتفيتُ بإعداد جُملةٍ من الأعذار لأحميَ كرامتي، وما حميتها حق حمايتها وقد تشظَّيت شظايا، فقد مـتُّ داخليًّا موتًـا سريريًّا، وأغلقـتُ أبواب الحياة، التمسـت له في عقلي كل مـا يبرئه وينزهـه، لكن مع وفاته وبَوحِه غير المباشر لصفاء، شـعرتُ

بانهيار قوي مدمدم يتجدَّد فقط، فقد كنت أنهار كل ليلة، ذبحني بخِنجر مسموم وأنا أتفحَّص السرير الفردي الثاني الذي أتى به دون سابق حوارٍ ولا نقاشٍ إلى غرفة نومنا.

ما أغباني..!! التمستُ له الأعذار حيًّا.... وجادت نفسي... أما ميتًا فلم يعُد للأعذار محلٌّ في واقع مُثقَل بالشك والتوجُّس...

رباه كيف تحمَّلتُ كلَّ جنونه الليلي وعطور النساء في غرفتنا...؟! كيف ظللتُ أعد أنفاسه من بعيد وهو يغطُّ ثَملًا منهكًا وأنا أذرف الدمع وأئنُّ في صمتٍ تحت غطائي..؟!

هجْرُ سريرِ المرأة حكمٌ بالإعدام، نفيٌ وانهيار، خروج ناعم من الحياة الصاخبة وبطريقة غير مشرِّفة، فقد آذيتُ نفسي كثيرًا وحمَّلتها مسؤولية فشل العلاقة الجنسية، وجالت في خاطري أفكارٌ تُشكِّك في أنوثتي، في ناري التي لم تعُد مشتعلةً بما يكفي، غدا عقلي يُردِّد في دواخلي المضطربة خوفًا وضعفًا أنني امرأة شاخت ولم تشعر بالزمن ، بل شِخت بكل بساطة... فهجرتُ كل أشكال الفرح، وأغلقتُ على نفسي الأبواب والشرفات وهمس الناس وحديث العابرين وصخب الأحياء، وعطلت أعياد الميلاد لأنها غدت مخيفةً، تحصي خطواتي نحو الفناء، ولو ظلَّ في سريري ما كنتُ أعطِّل ليلةَ تُشعرني بأنوثتي ووجودي وأهميتي...

مرَّ على واقعة خيانة عدنان مع الطالبة أعوامٌ، وطواها النسيان، وكان ممكنًا أن تظلَّ مجرَّد حادثة عابرة عندَه لو لم يكشفها بتلك الطريقة

السرياليَّة لصفاء، لماذا كشف الأمر...؟ يا ليته التزم الصمت...! يا ليته رحل ومعه هذا السر الذي ذبحني مرَّة ثانية كما ذبحني يوم أتى بسريرٍ ثانٍ إلى غرفة نومنا...! كم كان أنانيا...! هل أراد أن يتخفَّف من وزر الإحساس بالذنب...؟! هل كان في حاجة للبوح ليرتاح...؟ وأنا... هل فكَّر في كل هذه المتاهة...؟! هل عليَّ أن أغلق القوس لهذه الحكاية وأعود لوحدتي وحياتي المعطلة الفرح....؟!

أسئلة حارقة مُرَّة بدأت تسرق مني شهيَّة الطعام، وتحطب من لياليَّ زارعة السهاد المارق، وغدوت أخاف من حلول الليل بعدما كان زمنًا مميَّزًا عندي... غدوتُ لا أنام... وحدي أروض وحشي الضروس عدا رُفقة القط الأسود الذي اعتاد الشقة، وبدا حزينًا لرحيل عدنان لأيام، وظل ينام في مكتبه، فقد ترسَّخت علاقةٌ بينهما غريبة وقويَّة منذ أن شُلَّ وغدا مُقعَدًا... كان عدنان يقول لي ولو بصعوبة: "هذا القط نعمة... كلما مسحتُ على فروه بيدي يلاعبني... فيخفف عني الاكتئاب والقلق والضجر... لا أعرف هل هناك مقاربةٌ عالميَّة للعلاج برفقة الحيوان... لكن أؤكد لك أن القطط على الأقل تُجيد رفقة اليائسين والمنعزلين والمؤرَّقين..."!

نعم هو القط نفسه الذي تخاف منه سلوى الحداثيَّة بسبب لونه وأساطير واهية.

عليَّ أن أجد بعضَ الأجوبة حتى أستعيد معنى الحياة وأستعيد زوجي

ذكرى وعشقًا.... عليَّ أن أخرج من قاعة الانتظار حيث لا وجود لأي معنًى للحياة، فقط انتظار أن يُكمِل اليومُ دورتَه وأنا في خلوتي أكتوي بالخوف والضعف والشك...

المعبَر الأول نحو حياةٍ ذات معنًى أن أعترف أن زوجي ليس خائنًا... عدنان الذي أعرفه اللمسة عنده هِبةُ قلبٍ ونعمةُ حبٍّ، زوجي لا يمكن لأي امرأة استدراجه لممارسة الجنس بالأجرة... ليس لأنني جميلة وأثق في نفسي، بل لأنني أعرف الرجل الذي عاشرتُه سنينًا... أعرف أن الخيانة ليست في دمه، ولا بد أن في الأمر سرًّا ما، وعليَّ النبش بعيدًا عميقًا ولا أكتفي بسطح الحكاية... فالسطوح أحيانًا تعكس الوهم وتصرف الزَّيْف.

حدسي دفعني للتفكير في التنقيب عن أي شيء في غرفة مكتبه، وقد اتصلَتْ بي صفاء ليلةَ أمس، وألحَّت عليَّ بتنظيف مكتبه وتركه كما هو وعدم التفريط في ملابسه وفي كل ما يمُتُّ له بصلةٍ ولو عطوره وفرشاة أسنانه، وكانت عادتنا أن نتصدق بثياب الميت، ووعدتُها أن أفعل، وأكدَتْ لي أن في غرفة المكتب كل أسرار أبيها وعالمه الخاص، ولا بد أن أبحث جيدًا في كل ركن في غرفة المكتب، فصفاء أيضًا غير مقتنعة بخيانة أبيها، وأقرَّت لي أنها كانت قاسيةً في رَدَّة فعلها وفي قرارها معه، وأنها تشعر بالندم لأنها تركت عواطفها الجياشة تُعمي بصيرتها، وألحَّت على ضرورة البحث أيضًا عن طرف خيط هذه القضية، علمت مني أنني

أيضًـا لا أنام، لأن عندي أسـئلة كثيرة بلا أجوبة، فقـد كان ممكنًا أن يلزم الصمـت... فلـمَ اختـار أصعبَ الحلـول الاعـتراف...؟!! أهو اعتراف كامل...؟! قاسمتني الشكوكَ والهواجسَ نفسَها، وأكدت عليَّ أن أبحث بعيدًا في القضية؛ مما قوَّى إرادةَ تجاوز الرهاب من اقتحام غرفة المكتب.

لم أَلِـج هـذه الغرفـةَ منـذ رحل، كلـما حاولـتُ وضع قدمـي داخلها يركبني خوفٌ غريبٌ وشعور رهيب، فقد كان يُطيل المقام فيها ويكتب، كان يكتب ويقرأ وأسـمع وأعلِّق، ومع السـنين لم أعرف ما يكتب، هو لم يتغيَّر، بل أنا التي لم يعد لي وقت لسـماع ما يكتب، ولا سَعة صدر لقراءة مخطوطاتـه، كان كلـما عرض عليَّ نصًّا أكون متعبةً من العمل أو مشـغولةً بالتوثيـق والبحـث لعمل صحفـي، أو الإعداد لحوار ثقـافي، وغالبًا أقرأ نصوصًـا وكتبًـا جديـدةً، لأقـوم بمقاربة أوليَّة قبـل أن ألتقي الشـاعرَ أو الروائي أو المفكر، الصحافة الثقافية متعبة ولا يمكن لأي صحافي القيامُ بها، لأنها تفرض عليك أن تكون قارئًا وناقدًا ومحاوِرًا ومقارنًا وفي الوقت نفسـه أن تكون لك القدرة للحصول على الخبر الموازي للحدث الثقافي، كواليـس المهرجانـات والتظاهرات، وكفايـة التوقع والتنبـؤ، والحضور الفعـلي للتغطيات، أخـذ مني عملي حيـاتي الزوجية الحقيقيـة، وابتعدتُ دون وعـيٍ منـي عن عدنـان المبدع الـذي كان في حاجة لزوجـة ملهمة، ولأنـه صادق المشـاعر ووفيٌّ العلاقات، لم يقم بما يقـوم به بعض المُبدعين بالبحث عن المرأة الملهمة في أَسِرَّة متنوعة، سقط في دوامة الخمر، فانقطع

حبل إبداعه عني مع الزمن، واختلى هو كما اختليتُ أنا، وصرنا كَونَيْن متوازيَيْن، واكتفى بعمله الجامعي دون غيره، ربما وأدْتُ إبداعَه، بل قد أكون اليدَ الناعمة التي خنقت فيه منابع البهاء والعطاء. والحقيقة أنني نسيت نفسي كامرأةٍ، ولم أعُد أنعش أنوثتي بما يسحره ويفجِّر فيه ينابيع جديدةً للعشق.

تردَّدتُ منذ أيام خوفًا ورغبةً في دخول غرفة مكتبه، أخاف من شيء ما، أريد أن أعرف فعلًا، وفي الوقت نفسه أخاف مما يمكن أن أعرف، فغُرفة مكتبه جامعة أسراره، وكل ورقة فيها حتمًا تنطق بذكرى وتبوح بسِرٍّ، أحاول جاهدةً عقليًّا ونفسيًّا وجسديًّا لكن خطواتي تكبحها أوهام وهواجس، الخوف يشلُّ الإرادة ويمنع كل تقدُّم ولو مسافةَ شِبر، ليس الحِداد ولا الحزن ما يُربكان رغبتي في كشف المجهول، بل الرهبة... فقد كان لهذه الغرفة العاتمة الضيِّقة رهبة، الستائر السوداء لنافذة قلَّما تُفتح، وغُربة الأشياء التي تبدو باردةً واجمةً، ووحشة الفراغ والصمت القاتلَيْن، وحين خطوتُ أخيرًا، تحمَّلت رائحة غريبة كانت لها، رائحة الموت... ورائحة الغبار والتبغ وأعقاب السجائر والنبيذ، فوقع نظري على قلم حبره المميز وعلبة سجائره ولوحات أصدقائه التشكيليين على الجدار تبدَّد الخوف والرهبة وجاشت عيناي بالدمع الساخن، وغدَتْ كلُّ الروائح تُفجِّر الشوق والحنين، حتى طفقتُ أشمُّ رائحتَه في الورق والحِبر وخشب الرفوف والمرمدة والعلبة وتلفزته الصغيرة ومذياعه الأصيل.

ظلت غرفة مكتبه مفتوحةً منذ وفاته، لأن القط الأسـود تعلّق برائحة عدنان وكان يُفضِّل النـوم فوق الكرسي المتحرك، ولم يفارقها منذ رحل، بل بدا حزينًا وتغيَّر سـلوكه فلم يعـد يحتمل أن يعبث معه أحد، يهرُّ كثيرًا ويأكل قليلًا، فقد قضى مع عدنان سَـنةً ونيفًا، وغدَا في زمن مرضه جزءًا مـن حياته، وكم مرَّة سـمعت عدنان يُكلمه والقط ينظـر إليه وهو يلوح بذيلـه ويقـوم بحركات غريبة، وكان الراحل سـعيدًا بوجـوده، وقد قال عنـه بفرح: "هذا القط الأسـود يمتـصُّ كآبتي، ويمنحني شـعورًا جميلًا، وحضورًا دافئًا..."!!

طفقتُ أبحـثُ بحماس وتوتُّر بين الكتب والأوراق، والقط الأسـود يقفـز هنـا وهناك ويتعقَّبنـي وهو يموء مـواءً متقطعًا، فتحـتُ الأدراج لم أجـد شـيئًا مهمًّا، يمكـن أن يفك لغـزًا أو يُفضي إلى مجهـولٍ غريب، مجرد مذكرات ومحاضرات وبحوث أكاديمية، وكلها لها علاقة بالتدريس، أي بعمله الروتيني اليومي، وعلى رفوف المكتبة كتبُه التي أعرفها ومصنفات ومعاجم، بِضع كتب لم أشـاهدها قبلُ وكلهـا متعلقة بالتاريخ والحضارة الغربيـة، والأدب اليابـاني، أثـارني وجـود آلـة التسـجيل العتيقـة وإلى جانبها أشرطة كاسـيت وأغلبها لفـيروز وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطـرش وعبد الحليم ومارسـيل خليفة وسـعيد المغـربي وعبد الوهاب الـدكالي ونعيمة سـميح وعبد الهـادي بلخياط وبضع أشرطـة غربية من زمن الستينات، كم تقاسمنا سماعها معًا!! كما جلسنا معا نرتشف الشاي

في الشرفة ليلًا ونُنصت لأم كلثوم، فجأةً باد هذا الطقس، انشغلتُ أنا، بل لم أعد أجد وقتًا لسماع الموسيقى حتى قال لي يومًا: "إنك تفقدين روحك بالتدريج، يومًا عن يوم تُسقِطين سهوًا شيئًا جميلًا منك، وبدل أن تستعيديه، تتقدمين نحو الهدف الذي حدَّدتِه، والثمن مكلِّف، إن عواطفَكِ ستجفُّ، لأن ماء الوجدان هو الفن والموسيقى، وأنتِ أدرتِ ظهرك للفن".

والحقيقة أن عملي كصحافيَّة عمل مرهق ولا فراغ فيه، كنَّا في الجريدة نقول إن الصحافة جاحدةٌ كالسطل المثقوب تملؤه اليوم لتجده فارغًا في الغد، وهي بلا ذاكرة، والمصيبة أن لا شيء يشفعُ لك مرحلة الفراغ التي قد تصيب كل كاتب حتى اجتهادك السابق لا يُبرر مرحلة الحبسة... ولكل صحافي وكاتب حبسة وبياض قاتل.

كان هناك درج عريض في أسفل المكتب له قفل، لم أجد مفتاحه، فاضطررتُ لكسره، وطَفقت أستخرجُ ما فيه من مَلفات، كان هناك ظرفٌ في الأعلى معزولٌ بشكل غريب، كُتب على وجهه: "إلى زوجتي نجوى...". أخذتُه بين أصابعي وانهرتُ على كرسيٍّ حتى أزَّ، ترددتُ في فتحه... عاودتني الرهبة والخوف من المجهول. لِمَ تركَ لي رسالةً وفي هذا الدرج المغلق بالقفل بالضبط..؟! أهي رسالة اعتراف مباشِر...؟! أهي طلب للغُفران كمسيحي في حضرة قَس يريد التخلُّص من خطاياه..؟!

فتحتُ الظرف أخيرًا بتأنٍّ، كأنه لغم مرشَّح للانفجار في أي وقت، ثم

أكملتُ العملية بعنف حتى كدتُ أمزِّق الرسالة التي في داخله، وطفقتُ أقرأ ويا ليتني ما وجدتُ الظرف أبدًا! ويا ليتني ما ولجت غرفة مكتبه.

كتبَ ليذبَحَني مرَّةً أخرى، لكن هذه المرة بخِنجر ناعم من الكلمات، كتبَ ليصلبني مرَّات متعددة على صليب نرجسيته وخطاياه.

كتبَ في ركن الرسالة اليومَ والتاريخَ، إنها كُتبت ليلةَ سفر صفاء، قديمة جدًّا، حتى لون الأوراق اصفرَّ، وترهَّلَت.

أعدتُ الرسالة إلى الظرف وانتظرت سلوى التي طلبتُها توًّا، لا أستطيع قراءة الرسالة وحدي، فقد كانت خطابَ وداعٍ وإعلانَ رحيلٍ منذ سنوات، لم يتخلَّص منها، ورغم ذلك لم يفعل وزجَّ بالرسالة في الدرج.

جلسَتْ سلوى وهي خائفة مثلي، أخذَتِ الرسالةَ بين يديها المرتجفتَيْن، قلَّبت نظراتها، ولمحت القط الأسود بين رجليها، ولأن الأمر جلل، لم تُعِره اهتمامًا، وطفقَتْ تقرأ بصوتٍ مرتعِب يكاد أحيانًا يبتلع الحروف... قرأَتْ:

" نجوى... يا أم صفاء أغلَى ما أملك..."

توقفَتْ سلوى عن القراءة وهي تقول باضطراب وحزن:

- الرسالة مؤرَّخة بتاريخ قديم.... كُتبت منذ سنوات...!

- نعم يبدو أنه كتبها وتراجع عنها ونسيَ التخلص منها...!

- ربما كان يظن أنها ستظل صالحة...!

- من تاريخها علمت أنه كتبها ليلةَ سـفر صفاء لفرنسا... المهم أكملي القراءة....

- أوكي... يبدو أنها دسمة.... سأقرؤها... دون توقف...

" نجوى ... يا أم صفاء أغلَى ما أملك..."

التاريخ: اليوم العاشر من شتنبر ١٩٨٧

منـذ تزوجنا، وأنا أدبّر هذه العلاقة الملعونة بعقلي وليس بقلبي، وكي أكـون معـك صريحا، فكل عبارة عشـق أو افتتان لم تكـن عفوية بل كنت أسـتخرجها اسـتخراجًا من عقلي لأرمِّم بهـا جسر العبـور بزواجنا نحو ضفَّة الأمان...

لكن للأسـف... لم نكـن على متن مركب... لأن الـزواج ليس مركبًا ولا سـفينةً ولا خيمـةً... لا تُصدِّقي اسـتعارات الشـعراء... فالشـعراء يملُّون سريعًا، لذا هم فاشلون في الحب، أنانيُّون لحد القرف...

أتعلمـين أن نقد الشـعراء يجلـب العـداء....؟ أتعلمين السـبب...؟ لأن الشـعراء نخبيُّـون محاطـون بالحواريـين والأشـياع... وبالبائسـات والحالمات...حتى شعراء الحرية كانت لهم حدائقهم السرية حيث يخفون كل الضعف البشري ويدسون كل البؤس الشخصي...

الشعراء مضطرون للاستمرار في الغناء حتى وهم ينهارون ويتآكلون من الداخل... هم ملزمون بهذا لأنهم كهنوت الإيقاع والتناغم ...

لهذا هم وحيدون دوما ولو في قاعة مكتظة بالجماهير التي تصفق لهم... يختفون ثم يرحلون ويعودون لنقطة البداية بماء شعريّ يتدفق من عين الروح، من ثقب ضيق مفتوح على الوجع الجموح...

صدقيني.... الشعر قضيته الحقيقية الوحدة... العزلة... النفي... الألم الخاص بالقلوب التي تعتصر قبل أن تنفجر...

الشعراء يهربون من الارتباط الأبدي، لأن علاقتهم مع المرأة تحكمُها المسافات والشوق والحنين والجفاء والبهاء والوجع وطلب لقاءٍ هم أنفسُهم يؤجِّلونه...

القرب يقتل الشعر، وكل عِناق مؤجَّل نبع قصائد لا يجفُّ إلا برائحة الأحضان... الأحضان تخنقُ الشعر، تُنهي كل الوجع، وعليه أن يكتفي بالظل والرجع والصدَى لا بطعم الماهيات..

الشعر نفسُه نخبوي يختار قراءَه بعناية.... ولا تصدقي القاعات الممتلئة لشاعر يقرأ قصائد، فأكثر الشعر حين تُردِّده الجماعات يغدو أغنيةً سياسيَّة أو حكاية نفي ووجع... والشعر خُلق ليُحلِّق بعيدًا عن السطوح... ليتحدث عن الحرية في حلم بندقية، لا عنها في دمٍ ساخن لم يبرد بعدُ..

لا أدري لِمَ أحدثك عن الشعر... آه..! تذكرتُ... الاستعارات التي تؤمِّن للشاعر جرعةَ ضوء في عتمة الضجر اليومي... الشعراء الذين

نجحـوا في الزواج، شـعراء بوظائف أخرى، ويملكون قـدرةً رهيبةً على المـشي في الظـلام، والابتسـام في الجنـازات، وقطع أشرطة التدشـينات، وأخـذ الكلمة بين الجموع... فالشـاعر ليس خطيبًـا، وحين يخطب أمام الناس يغدو كفرخٍ ضعيفٍ مرتجف العبارات سقط من عُشٍّ عالٍ...!

الزواج وهمٌ، سـجن ناعم للروح.. للوجدان.... إنه أخطر ما ابتدعه العقل الإنسـاني ليُبـدِّد الضجر، ويصنع الأحلام، لكـن زواجنا كان قمَّة الضجـر، وقمَّة المـوت اليومي للأحلام... تزوجتُـكِ وبعدَ حين توقفتُ عـن الحلـم، تزوجتُكِ وبعـد حين غـدا كل شيء خريطةً تُحفَـظ عن ظهر قلـب، تزوجتُـكِ فلـم يعد بالإمكان ارتجـال الزمـن ولا الفعل ولا حتى الشهوة...!

الزواج لعبة مزيَّفة بين رجل وامرأة للهروب من الوحدة، الكلُّ يخاف مـن الوحـدة، لكنني معكِ كنـتُ وحيدًا بشـغفي ونزواتي وحتـى آثامي، كنـتُ وحيدًا.... لأنك لا يمكن أن تعرفي عني كلَّ شيء، لأنكِ تزوجتِ مـا تريديـن فيَّ وأن يكـون فيَّ، نسـخة مجتمعية بلا نكهـة لآلاف الزيجات بأوهامهـا وأحلامهـا التافهة... وأنـا شيء آخـر... لا يمكنني أن أرقص أمامكِ عاريًا لتري كل وشومي، كنتُ الظلَّ مجرَّد الظل، أما الصورة شِبه الحقيقية فكانت في المواخير والفنادق الرخيصة وأحضان المومسات...!

لقد كان فيكِ في البداية شيء مما أطلبه ويُبدد ضجري... كنتِ عفويَّة، حمقـاء الخطو، تكرهين التوقُّـع والتنبُّؤ ، و كل ما يأتي فجأة فيبلل الجسـد

والأفق... كنتِ بلا خريطة، لا تسـمحين للنشرات الجوية باختيار يومِكِ وعطـرك ولباسـك، كنتِ منطلقةً رغـم حزنك الدفين، لكنـك كنتِ بلا غـدٍ... اليـوم هـو زمنُـكِ... وهذا فهـم جوهـري للزمن... فـلا وجود للأمس والآن والغد... اللحظة هي الزمن....

لكنَّ حملَكِ.... وولادتَكِ.... بل أمومتَكِ أعادتكِ للنَّسق... للبِنيَة... للتكرار الأبدي، لإعادة تدوير حياةٍ... فلم تعد اللحظة هي الزمن... بل غدت صفاء ابنتُنَا هي البوصلة أدقَّ ساعةٍ على جداري قلبَيْنا...!

وغدت صفاء نسـمةَ ياسمين مسائيَّة تُنعش جداول مياهي الداخلية، وتُبـدد ضجـري، وتُطيل عمر زواجنـا الذي لم يعد يذكر رصيف رسُـوِّه اليومـي.... فغرقنـا في الرتابة حدَّ الموت... وأنتِ كنتِ سـعيدةً بشـكل غريب.. بزوجٍ مُحاضر وابنةٍ وبيتٍ وعملٍ راقٍ، وسرير دافئ بدأ يبرُد دون أن تشـعرين...وبدأ يتحول سريرنا فراشَ نومٍ لا سريرَ أحلامٍ وجسـدين ما زالا في رحلة الكشف عن نخيل الواحة الشهية في صحراء الأيام...

ثـم صرتُ وحـدي أفتِّش عـن سِرِّي وتميمـة بقائي، وتعويـذة تؤجِّل رحيـلي... فكانت صفـاء... ابنتي سرَّ عدم رحيلي باكـرًا... فكما تعلمين أنني عشت في بادية فقيرة جدًّا، لا ماءَ ولا كلأَ، آمالُنا متعلقة بالمطر الذي يظهر عامًا ويختفي سنوات، ومات والدي، ودرستُ بشِقِّ الأنفس، كنت أجمع بين الرعي والدراسة، ثم المدرسة والحرث، فالجامعة وتنقية الأسماك للزبائن وحمـل البضائع في الغبش على ظهر حماري ثم عربة لتجار الجملة

في سوق الخُضَر... عشتُ يتيمًا... لا شيء أثَّر في حياتي أكثر من اليُتم... واليتم ورحيل الأب من طبيعة واحدة.... الغياب....!

لهذا تحمَّلت.... حتى لا تشعر صفاء بالغياب.... قد تؤذيكِ كلمةُ "تحمَّلت" إن ظننتِ أنني تحملتُكِ... والحقيقة أنني تحمَّلت الوضع بكل أعطابه، ليس لأنه وضع مقبول، بل لأنني أضجر بسرعة، ولا أطيق نمذَجات الحضارة، ولا أن أكون مُعادَ التدوير في علاقة إنسانية بين رجل وامرأة، تُنتج الهوس والوهم والأحلام البسيطة السطحية....

كنت وحيدًا لأنني فاشل دومًا في الاستمرار في السير نحو هدفٍ حُدِّد مسبقًا... فمعرفة كل خبايا رحلة العمر مع هامش للقَدَر... نوع من العيش ميتًا وسط حشود تركض نحو الهاوية...

تحمَّلت الوحدة... فقد ابتعدتُ بعيدًا حتى شعرتُ ببرد الوحدة يرقص بين ركبي.. وتسطَّحَتْ أحلامُكِ وصارت لكِ خارطة طريق.... والطريق مجرَّد عبارة عن أصوات لا غير...

فما أبرد الوجود لولا نار امرأة يُخيف ظِلُّها الصقيع والعواصف والريح...!

أنعشي ذاكرتكِ...! فحين التقينا....كنت كنسمة تخفف وهج القيظ...كنتِ مشاغبةً ترقص كالفراشات في ربيع الروح....كنتِ تركضين في كل اتجاه...وتؤجِّلين اللقاء والعناق... والوجع بالرجاء..

كنتِ اللحظة وكانت اللحظة أنتِ...

تكونـين معـي حين يعسر الشعر، شـغفًا وحُبًّـا، تشـعلين في القلب الشـموع... تغنين عـلى الشرفة كالحمقاء، تأتيني بعبق عطر كنسـيم هواء بارد... فيتلاشى الوهم والضجر.

ثـم حملـتِ وصرتِ أمًّا فـبرد شـغفك وخبَتْ نـار سريـري، وغابَتْ وحوش فراشي..

ثـم غدوتُ الظـلَّ الذي يبـاركُ كل شيء، الذي يبتسـم... الذي كان يتمنَّى أن يكسر هاتفك الصقيل الضخم الذي تظنين أنه مصدر قوَّتك... فقـط لأن هاتفَ خردةٍ شـبيهًا لـه كان في غرفة أمك، فشـججتِ به رأسَ زوج أمـكِ ليلة تحرَّش بكِ... وظللتِ تعتقدين في قوَّة الهاتف الضخم لا اليد التي صوَّبَتْه جهةَ العدو..!!

ما عشقتِ فيَّ كان الظلَّ... والظلُّ ينفلت ما بين الأصابع كخيطِ ماءٍ، وأنـا مجرد صعلـوكٍ يُجيد تدريـس الأدبِ وإحراجَ المبدعـين بثقافةٍ عارفةٍ أقتـل بها متى شـئتُ بُرعُمًا لا يُعجبني شـكله، أو طالبًا متحمِّسًـا يُذكرني ببداياتي الصعبة.... أكره الدراويش والمُتسـوِّلين والمتزلِّفين في الجامعة... لأنهم يختطفون شعلةَ كائنٍ آخرَ له الحماس نفسُه، لكنه لا يجيد اختيار لون شمع حذاءِ أستاذه...!!

مـع الوقت... أصبـح البيت مُتحفًا لا يقبل تغيُّر أي شيء، ولو مرمدةَ

أعقـاب سـجائر... فتعاظَم الضجـر في بيتٍ كمدينةِ الموتَـى، وفيه زوجة تلعـب دور كاهنـةٍ في بيتها، وتعاظمَـتْ وَحدتي... لأنّنـي أحب البيوت التـي تتغيَّر بـما فيها وليس فيها... صرتُ سـجينَ عـالَمٍ لا يتغير، وظللتُ أروِّض غضبي ورفضي لأنني كنت عاجزًا حينذاك عن الرحيل....!!

وأنـتِ كـما أنـتِ... أغلقـتِ كلَّ كُوَّة ضـوء، حوَّلـتِ الشـقة مقبرةً، وزهدتِ عن السفر، فكنا مجرد ظلَّيْن يختبئان في عتمة الدار حتى الصبح، وكنـتُ أغرق في الرتابة، وبدأ معنى الحياة يهرب منا، فقد كانت شرنقتك موبوءةً بوباء مُعدٍ، كل من أطال النظر فيها، يصنع قوقعةً ويكتفي بصدى الحياة على صخب الحياة...

انطفـأتِ ولم تفكـري في أن الاشـتعال في المـرأة يلزمـه فتيـلُ الرغبـة وكبريـت الإقبال على الحياة برغبةٍ جامحةٍ ومشـاعرَ طافحةٍ وجسـدٍ يتوق أن يصـير أرضًـا بِكرًا دومًا تحتاج لأصابع لتكشـف مناطـق مجهولةً فيها، قمعتِ الجسـدَ والروح والعقـل واكتفيتِ بحياة زوجـة تدبر الزمن نحو الفناء.

انطفأتِ أخيرًا.... ربما كنتِ غير قابلةٍ للاشـتعال! كبريتك صار رطبًا برطوبة الخـوف الغابر في تفاصيل روحكِ، واكتفيـتِ بالجلوس بالشرفة تراقبين حياةً من بعيد، والأيام تمرُّ أمامكِ، ولا دَور لكِ فيها سـوى رواية لصديقةٍ كلما حضرت، كأن بيتنا مجرَّد شـاهد على الحياة وليس جزءًا منها ومـن صخبها وفرحهـا وأحزانها، بل وحتـى عفنها... وبـدأتِ تعتادين

الظلمةَ حتى ظننتِ أنها هي الأصل، فخبوتُ معكِ كشمعةٍ جفلت عند قعقعةِ الرعود وكَرِّ الرياح!!

وانطفأتِ... فربما الضجر... وعاد البيت مجرَّد محطة للنوم أو الكلام الذي يُرقِّع علاقةً انتهت قبل أن تكون... لأنني لم أُخلَق للزواج.. للنظام... لأن أكون في نَسَق... في بِنيَة تصنع الوهن والوهم...

مع الوقت... انطفأتِ الشموع، وتلاشَى الشغف، وابتعدتِ شيئًا فشيئًا عن صخب الحياة، منذ داهمَتْكِ دون سابق إنذارٍ سِنُّ اليأس مبكرةً وحرَمَتْك من القُدرة على الإنجاب. انطفأ بريق عينيك، وبرُدَ فراشنا، واختفت الشموع والموسيقى، وافتقدتُ حبيبتي القارئةَ الأولى لشعري... المؤولة بعزاء وسخاء لأحلام الحبر.. واختلطت عليكِ الأمور، فاخترتِ أن تكوني زوجةً فحسب... للأسف المُبدعون يحتاجون أكثرَ من زوجة، يحتاجون امرأةً بإمكانها أن تلعب جميع الأدوار، أعرف أننا متطلبون، لكن... هكذا نحن كالأطفال... أنانيُّون... نَرجسيُّون.. حدَّ التطرُّف... أردتُ زوجتي نجوى أن تظل المُلهِمةَ والقارئةَ والعاشقةَ والخليلةَ. لكنكِ مع الزمن حافظتِ فقط على دور الزوج، وكنتِ زوجةً رائعة، ولو بنصف روح وعقل، فالنصفان الآخران كانا للعمل، لا غير...

وحين غرقتُ في الخمر، لم تسألي نفسَكِ ولو مرَّةً لِمَ يُدمِن عدنان الخمر..؟! لِمَ يشرب يوميًّا بهذا الشكل...؟! لو طرحتِ السؤال لوجدتِ الجواب عندكِ.... أدمنتُ الخمر لأنني كنت وحيدًا وحزينًا... لأنني لم

أعد قادرًا على التكيُّف مع حياةٍ عادية... لأنني لست عاديًّا... أهرب من الضجر بصناعة الصخب كلَّ ليلة... أهرب من التحنيط التطوُّعي، من جدرانٍ حالكةٍ مظلمةٍ، من زوجة تحسب تغيير مكان شيء أزمةً عاطفيةً، من امرأة اختزلَتِ الحياة في شُرفة لا تُقدِّم غير زيف من عالَمِ إقامةٍ كل سكانها عاجزون عن العزاء والسلام، أهربُ من عمليَّة انتحارية للزمن والمكان، حين يحترقان في مكانهما المتكرّر دون تحوُّل في الأشياء والأحلام، أهرب من خوفي وهوسي، أهرب من برودة الجدران والمشاعر، من غفوة الأحلام، من هروب امرأة المستمر لضفَّة التأجيل، فكل شيء عندكِ مؤجَّل: الفرح... السفر... الحزن نفسه، البكاء والعزاء... أهرب من نظراتِكِ حين تقرئين نصوصي، وأشعر بك تختارين الصمت والحياد، قصائدي تَكره الحياد حين تُتلى، وحِيادُكِ اتهامٌ وتأجيلٌ وتبخيس... لهذا أهربُ إلى الخمر والحانات، حيث يعدو العالم كونًا قزحيًّا موازيًا لكونكِ الكئيب، لقَتلِكِ الناعم لفتنة الشعر فيَّ.

ألستُ مبدعًا أم أنك لا تؤمنين بإبداعي...؟!!

أنا مبدع رغمًا عنكِ، وعن النقاد، وعن كل الأوغاد المتربصين.... وحتى القراء الذين أكلتهم الشاشات الباردة....!

المبدعون الكبار لا يأتون في زمنهم بل يتقدمون...

المبدعون الكبار يقتلُهم خوف مرتزقة الكتابة الذين يخافون من شمس الإبداع لأنهم مجرَّد مصابيح صينية رخيصة الصنع تتكسر عند الوهج...

المبدعون الكبار لا يُروَّضون ولا يَقبَلون المُساوَمات، ولا يُساهمون في أعراس خِتانة الأدب باسم فحولة أدبية بلا غطرسة ولا إباء...

لهذا أنا ذا المبدع الذي لم تريه، لأنكِ مسكونةٌ بالشَّبَه، وأنا لا أُشبِه غيرَ نفسي...

لهـذا خسرتكِ كقارئةٍ.... لأنني أعجز عن وصفٍ دقيق يليق بالشـبق لسـياق أنثويـة درج الكل على اسـتعارة المرمر والشـمع للتعبـير عن قوَّة الجـمال... وأنـتِ تريديـن اسـتعارات تفهمينهـا... وليس عنـدي إلا ما يُمتِّعك...

غـدا فراشـكِ بـاردًا، وغـدوتُ أضاجـع قطعـةَ جليـدٍ، وفي أحسـن الظـروف زوجة تؤدِّي واجبها وهي ميتـة... كان سريرنا احتفالًا بالحياة وعرسـا وصخبًـا نروض فيـه صعوبات اليـوم ونقفز فيه عـلى التفاهات والرتابـة والانكسـارات... فأصبـح تمرينًـا كلـما سـمحَتِ الظروف على اسـتمرار الزواج... ثـم صِرنا غريبَـيْن... وابتعدْتِ حتـى صِرتِ زوجةً تُخيفها دعوة للعويل على هودج البقاء...

نتبـادل كلامًا لا بد منـه، حتى أعياد الميلاد حُرِمنا منهـا... حُرِمنا من الفرح... كما حُرمتُ قبلُ من دفء امرأة تجيد نسج الأحلام لرجل تهرب منه الاستعارات...

أتعلمـين لمَ ظللتُ معـكِ ولم أرحل لحد السـاعة..؟ من أجل صفاء،

لا غـير... لم أُرِد أن أُجهِـض أحلامهـا ولا الزجَّ بها في وسـط متاهة حياة صعبـة بوالدين مطلقين... ولأني ما زلـت ألتقيكِ في أحلامي، تُصلحين هفواتِ تفعيلاتي، وتُمهلينني كما في السـابق يومًا لأكتب قفلة جديدة تليق بنص سردي.

إنني صرت عاجزًا عن إقامة علاقةٍ جنسيَّة عادية معكِ... فشلتُ تلك الليلة.... وسأظلُّ أفشل.. لأننا فقدنا التقاسُم وحل محلَّه الواجب... لهذا صِرتِ قطعـة من الخشـب البارد عـلى السرير. خيَّرَتْني صفـاء، فَسَرَّعتْ قـرار الفصـام الجسـدي، وإن كنتِ سـتدركين الحقيقة المـرة ذات يوم... وأنك كالعادة ستكونين رحيمةً بي وتلتمسين لي الأعذار...

ليـس كلام صفـاء ابنتنـا حينما وضعَـتِ الخياريـن ما دفعنـي لمغادرة سريركِ... بل كان لا بد أن أنتظر حتى تسافر كي لا أؤثِّر على نفسيتها وكي أقوم بما قمتُ به... حين تقرئين هذه الرسالة، سأكون خارجَ حياتك، ربما في فندق ما، وكل أملي ألا تكرهوني... إني أكتبها ليلةَ سفرها...

زوجتي نجوى...

سأقاسـمكِ أسراري مهـما بلغـت مـن فظاعةٍ وبشـاعةٍ، سأقاسـمك هوسي وهلوسـاتي وما علق بي من طفولتي.. من شقاءٍ لا يُنسى، وإذلال لا يُمحَى وهوانٍ لا يتبدَّد حتى تحوَّل إلى عقدة شرسـة تمتصُّ دم الضحية باسم الحق في الحياة المستلَبة.

الخيانـة... نعـم الخيانـة... تـرى هل لها الوقـع نفسـه في كل العقول والقلوب...؟ هل هي بالمعنى ذاته الذي أحسسـته حين سكنت دمي منذ استدرجَتْني أول طالبة... نعم...ثم... أدمنتها كأس نبيذ في آخر الليل... فتحوَّلت فجأة إلى وحش ضارٍ، يطلب الجنس والمديح ورفع الأنخاب له في كل مـكان، خُنتُك مع جميع الأشـكال... لم تمضِ ليلة دون أن أكون في حضن امرأةٍ أو طالبة، فقد كنتُ أجنح لأفحشِ فراش لغةً وهمسًا وجنسًا وحريةً بلا حدود....

لم أسـتدرِج أيـة طالبة بسُـلطتي كأسـتاذٍ، فلسـت نذلًا إلى هـذا الحد، ستضحكين ضحكةً ماكرةً، حينما أقول لكِ إنني كنتُ الضحية في البداية، فقـد طاردتنـي طالبة بـكل ما تملك مـن أسـلحة الغوايـة، والغريب أنها طالبـة متميزة، حاصرتنـي حتى جالَ في خاطري أنهـا مكيدة، أو مصيدة اسـتخباراتيَّة، رغـم أننـي توقفتُ كما توقَّـف غيري عن الصـدام منذ أن غدوتُ سـاكنَ الحانات والقِـلاع المخملية، فالعوالم الحمـراء المخملية لا تليق بكم يريد أن يظلَّ في خطِّ التماس مع جبهة السلطة، فقد تصير الحانة مصيـدةً والمواخير فضيحةً ومضاجعةُ طالبـةٍ قضيةَ رأي عام. كنت أجيد الصمت والكلام الذي لا يصنع سوء تفاهم، ولا خصومةً مع السلطة...

لكـن هذه الطالبة ألحَّت في لقائي حتى شـككت، وذات ليلة وجدتها تجلـس إلى جانبـي على المشرب في حانة راقية، قفـزَتْ ودون إذني طبعت قبلة على خدي، طلبَتْ لي كأسًـا ولنفسـها كأسًا، وشربنا معًا، ومع الزمن

تقاربنا أكثر، تلامسنا، وكلما طفح سُكري تبدَّد خوفي، وحين هممتُ بالعودة، أخذتني بسيارة فارهة إلى شقة من العيار الغالي، ومارسنا الجنس كمراهقَيْن بكل شغف ووحشية وحرية...

ثم اختفت وسط حشود الطلبة، وبسببها كنتُ أصحح أوراق الامتحان دون الاطلاع على الأسماء، وكانت تنجح بامتيازٍ، وظلَّت من حين لآخر حين ترغب في تأتي إلي... ولا أبحث عنها.... حتى سافرَتْ لإتمام دراستها لفرنسا... دون وداع... أظن أنها مجرد طالبة راهنت على إغوائي فنجحت...

لا أحبها لكن سفرها ترك في حياتي فراغًا كبيرًا، وقد ألفتُ جنسًا آخر لجيل جديد، كل شيء عنده مباح ويملؤه الشغف والوحشية.... فراشها كان فاحشًا، لم تعوضها أي بائعة جنس محترفة، لأنها كانت صادقة الأنين واللذة والنشوة.

الضجر من جديد.... والفراغ.... قاتلان... كل البدائل ممكنة... للهروب من الموت في خندق المنتظرين في محطة قطار قديمة لقطار غيَّر سكَّته، والمحطة ظلَّت مجرد شاهدٍ على زمن عبور ممكن بين حقول الذرة، وبساتين اليقطين، ومروج الرياحين.

وبدل أن أكون الطريدةَ صرتُ الصيَّاد... فامتلأت حياتي بالطالبات، وقد غدت لي جماعة من المثقفين المزيفين، كلما أرادوا جنسًا، نظمنا حفلات تكريم بعيدة ومهرجانات، ودعوا لها خليلاتهم، وكل طريدة ممكنة،

يستفردون بهن في الفنادق ومؤسسات الاستقبال... لذا لا يأتي الشعراء والشواعر الحقيقيون، لأنهم لا يتلقون الدعوة، أو لأنهم مشاغبون قد يفسدون عُرسًا جنسيًّا باسم الثقافة... غدوت جزءًا من جماعة تافهة يُكرمون بعضهم البعض، وينامون في أسِرَّة المدعوات...الواهمات... ضحايا زمن التفاهة وصناعة الوهم والرموز المزيفة...

كنت أهربُ من الضجر، فكَمِ العالَمُ مُمل وقاسٍ، لكني استمررت في تغذية الضجر لا غير، وأعلم أنكِ ستقولين هي أنخاب مزيَّفة، ألا تنظرين حولك لتري أن الطبول تدقُّ للجبناء، والأنخاب ترفع للقوادين، والتفاهة تسيطر علينا في أدق تفاصيل حياتنا، لقد برمجتِ ما يجب أن نشتري لنكون مع النخبة، وما يجب أن نأكل لنكون مع زبدة المجتمع، وحددتِ لنا شروطَ القراءة والأسماء التي صارت مجرد ماركات قرائية، وحددتِ لنا الحياة وطقوسَ الحِداد والتكريم والتأبين.... إنه زمن مزيَّف... ليس ما نراه هو الحقيقة، بل ما يجب أن نراه.

لست كاملًا، ولن أتوق لذلك... لأن الكمال ذاته ضجر، فالنقصان حركة مستمرة نحو الكمال المؤجل دوما، ومن هذه الحركة الوئيدة أحيانًا والسريعة أحيانًا أخرى ينبثق التاريخ، وتتأسس الحضارات والثقافات، وتدقُّ طبول الحروب، وتوقع مواثيق السلم والاستسلام، وينشأ الفكر في بحثه المُضني عن كمال داخلي وكمال نظري.... في هذه الحركة الحية لا مكان للرحمة، ففيها يتوَّج ملوك ويموت ملوك، تسقط إمبراطوريات

وتختفي أخرى، إنه السعي نحو الكمال.... والكمال متعدِّد بتعدُّد الأطماع والطموحات والرغبات....!

حقيقتي... أني رجل فاسق يعشق كل امرأة على الطريق... ويدعوها لفراشه، ويقرأ لها شعرًا، فأحبُّ في عينيها الدهشة والانبهار، وذاك الوميض الذي انطفأ في نظراتكِ عند آخر قصيدةٍ قرأتُ لكِ... لقد وجدتيها باردةً، لأنكِ كنتِ تريدين قصيدة تحت خيمة، وأنا كتبت لك أشعاري عابرةً من جبل الآلهة إلى جحيم اليتامَى وموائد الفقراء بالمزابل، وعرق العاهرات الجريحات في مخادع المزيَّفين... كنتِ تريدين قصيدة تتعمَّد وتغتسل قبل البوح، مثلك كنظام سياسي يخاف من شاعر ينام في الإسطبلات... كنتِ تريدين شاعرًا يجيد البكاء بلا جنازة والضحك حين يفشل المهرج والتصفيق للجنرال حين نخسر المعارك... حقيقتي أنه كان عليَّ لترويض الضجر أن أختفي حين أتزوج.... فأن تعيش خفيًّا هو ثمن البؤس الوجودي لتعيش سويًّا متصالحًا مع أساطير المجتمع التي كانت يومًا ما مجرد لعبة عقليَّة لتدبير الأزمات.

كيف لكِ أن تهتدي إلى حل لكل هذه التناقضات في....؟! صعب الأمر لو فكرت بمنطق الأموات... فكري بمنطق آخر... بمنطق الاختلاف لا الائتلاف.... وأنا آسف لأنني لم أجد الحب في حضرة الضجر ولا الصبر بحجة الزمن...

لم أبلغ مرحلةَ كرهكِ... لأنني حاولت ولم أستطع...."!

٤

رسالة كُتبت صيف ١٩٨٧ لتصل إلى صيف ١٩٩٣، كقصة رومانسية لجندي ذهب للجبهة وكتب رسالةً، لم يعُد أبدًا لقريته، لكن حبيبته تسلَّمت رسالته بعد سنوات من انتهاء الحرب، لأن ساعي البريد مات بلغم على الطريق، فتناثرت الرسائل، ووجدها بعد سنين مزارع مطمورةً في التراب في حقله.

بكت سلوى كثيرًا عندما انتهت من قراءة الرسالة وقالت مغمغمةً وهي تنثر مخاط أنفها:

- ليس هذا الأستاذ الرقيق عدنان الذي أعرفه... قد أتقبَّل خيانته... فهم كلهم على كل حالٍ غشاشون... كذابون... لكني لم أتوقع منه هذه القسوة....

وطفقت تنتحب وتُردِّد: "كيف سمح لنفسه أن يُحمِّلكِ كلَّ خيباته... وينتظر منك أن تصعدي منصَّة الإعدام وهو الجلاد... كيف... كيف...؟!

سحبتها نحوي وضممتها بقوة وبكيتُ لأنني كنت في حاجة إلى صدر أرتمي فيه وأنتحب كطفلة، ودام الوضع بضع دقائق، ولا أعرف لِمَ حضرت صورة أمي في ذهني، وعظُم فجأةً في قلبي الشوق لها، ورؤيتها دون محاسبتها عن صمتها عما فعل بي زوجها "العجل"... عليَّ أن أسامحها رغم الخذلان وأبكي في أحضانها..."!

قلتُ لسلوى بحزن وخيبة:

- هل هو الرجل نفسه الذي كان يكتب لي قصائد باردةَ الروحِ ويرسلها طائرات ورقية وهو في شلله فأبتسم في وجهه لأرضيه...؟! أهو الرجل نفسه الذي غسلتُ غائطه وبوله وقد هده المرض... ودلكت ظهره وساقيه وحمَّمته وغيَّرت ملابسه وصحوت ليلًا كلما ناداني وألحَّ عليه البول أو الغائط...؟!

قالت ولم تتخلَّص بعدُ من النشيج:

- لم أكن أعرف أنه قاسٍ لهذه الدرجة...!

- قولي وضيعًا... حقيرًا...!

- لقد كان يغازلك كلما حضر إلى مكتب الجريدة وكنا نغير...

- أهو فعلًا نفسه الذي كان يغازلني ويتغزَّل في جمالي وطولي وشعري ولون عيني... أم شخصية أخرى؟! أهو فعلًا الرجل نفسه الذي يسامر ابنته الساعات والساعات ليحكي لها حكايات لتنام...؟ أأكون قد تزوجت مجنونًا فصاميًّا أو كما يقول الأطباء شيزوفرنيا...؟!

انتصبت سلوى واقفةً في غضب وارتباك وردَّدت وهي تضرب الأرض بقدمها:

- كيف سمح لنفسه أن يعقد لك محكمة يلعب فيها هو جميع الأدوار من الضحية إلى القاضي، في غيابك؟!

أرد عليها ساخرة:

- ربما كان عنده اليقين أنني سأصعد والخزي يركبني أدراج منصة الإعدام منهارةً قابلةً بخنوع صك اتهامه.... من أين أتى بهذا اليقين كله...؟!

تردف سلوى:

- وهل مثله من يرفع لواء الغدر والخيانة والخذلان والزور والبهتان والفساد له الحق أن يعتلي منصة الحكم...؟! الأصل أن تكون رسالته.... رسالة بوح وطلب غفران... علَّه يحظى براحةِ البال في عبوره نحو العالم الآخر... لا صكَّ اتهامٍ وتعليق الخيبات والإخفاقات على مشجبكِ... أتمنحيه حق التأويل والمعنى..؟!

- لن أمنحه الحق في التأويل.... رسالته مجرد تبرير سطحي لخيباته العارية.... لعاره وعريه وعهارته... لفصامه...!

ارتشفت سلوى كأس ماء من الحنفية، غسلت وجهها، ونزعت حذاءها وتمدَّدت على الأريكة وأردفت متسائلة بحنق وغيظ:

- هل ستتخلصين من الرسالة... لأنها موجعة؟!

- لن أمنحه هذا النخب وهو تحت التراب...

- الرسالة منتهية الصلاحية... فقد دبَّجها منذ ما يقل عن ستة أعوام... ليلة سفر صفاء... وتراجع في آخر لحظة.... فَلتَمُتْ معه... ومعه كل الاعترافات... لا يجب أن نفسد صورة عدنان الأب في عيني صفاء..

- ما حزَّ في قلبي يا سلوى أنني قد أحببته بجواري وفؤادي وكل خلية من جسدي، كان أفقي وسمائي، ومنتهى الأحلام، صادقته وصدقته... كان عالمي ودنياي... لكن... ها هو عالمي يتحوَّل مجرَّد سراب، مجرد وهْم... مجرد وهْم...!!

قالت سلوى وهي تكبح دمعها:

- كل القسوة ليست في الخيانة والعهر والفساد والرشاوى الجسدية، بل في المحاكمة التي نصبها لكِ كمسؤولةٍ عن آلامه... والحقيقة... بعض الأشياء هو صادق فيها... لكن لغته تنحرُ وتقهر، وهنا قوَّتها... فليس قوتها في صدقها، بل في صياغتها ومنطقها الداخلي... احرقي الرسالة ولِيَنْتهِ الأمر...! فالراحل نسي أنه يعيش على الأرض، وأن هناك من يصحو باكرًا ولا رغيف في داره، وبدل أن يهرب من بؤس وضعه، يصنع لأسرته الأمل ولا يختفي... عدنان -سامحيني- أناني... جبان.... وقد زيَّف ضعفه بقوة لا قيمة لها حين تطلق النار على المتعبين وأنت في أعلى الأكمة وهم في ساحة عارية... احرقيها... إذن...! إنها كتعويذة لعنة تنقل الموت وعدوى الرغبة في الانتحار...!

ضحكت رغم الخيبة بمكر ساخرة وقلت بقوة:

- رغم مرارة الرسالة وحُرقة تعابيرها، لن أكون جبانة وأحرقها كما توقَّع، حرقها إدانة لي، وعارٌ وخزي ، عليَّ أن أتعايش معهما طول حياتي لو فضَّلت الصمت... سأجعل ابنتي تعرف الرجل الذي كان أباها... والتهم التي كالها لأمها... سأضعها أمام خيارها وحريتها وإرادتها... لنقرر معًا... في مصير الرسالة.... بعض الأشياء ذكرها كان على حق وأتحمَّل فيها المسؤولية المعنوية لا الأخلاقية.

- لا.. أرجوكِ... أبعدي صفاء عن الرسالة.... نجوى... أرجوك... لا داعي أن تكون جزءًا من هذا العبث... وهو أحبَّها بقوة... ولم يرحل حتمًا بسببها ومن أجلها.... أرجوكِ... دعيها بعيدةً كل البعد....

- أليس من حقها معرفة حقيقة أبيها...؟!

- بعض الحقائق لا تصلح لشيء سوى الهدم... قيمة الحقيقة فيما ستُرسِّخه من عدالةٍ إنسانيةٍ لا فيما ستُخلِّفه من ضحايا.... وكثير من الحقائق لا تُقال لأنها مدمِّرة لا بنَّاءة... هذه الحقيقة مدمِّرة وكارثة... يجدر الاحتفاظ بها ودفنها مع المرحلة..

اعتذرت سلوى بأدبٍ، وكانت منهكةً، ويبدو أن الرسالة قهرتها، فقد كانت تقرأ بألم ووجع، وكلما توقفت لتفكر في عبارة انتحبَتْ، فأحثُّها نهرًا

على الاستمرار مردِّدة بحنق: "أكملي يا سلوى... إننا نقرأ ماضيًا تبدَّد، وهذا كلام الموتى... فلا تبكِ... واستمري..." وقد أتعبها ذلك، وهي المسكونة بالجدل، وقد لجمت فيها كل ميل للجدل والنقاش.

غادرَتْ وقد غطَّى ملامحَها الوجومُ الحالكُ، خيَّمت سحب حزن تطيل العبور في نظرات عينيها اللتين احمرَّتَا وغدتَا بلا بريق منطفئتَيْن، بهالاتٍ سوداء مباغتة... غادرت منهارةً تجاهد للمشي دون أن تخرَّ، أظن أن وهنًا أصاب ساقيها كأن رصاصةً أُطلقت على فخذها، بحُجة العمل غادرت، والحقيقةُ أنها لم تعد تطيق الأجواء، وهناك شرخ ما وقع في روحها، أما أنا فقد أجَّلت كل عاطفة إلى حين مرور عاصفة الرسالة، واكتفيتُ بدموعٍ تغلبني كلما صلبني عدنان في محكمةٍ بلا شهود ولا عدول.

أتابع سلوى المنهكةَ وهي تجرُّ خُطاها، كأن حملًا ثقيلًا قضَّ ظهرها، وازدادت ضعفًا وهي تسير مفضوحةَ المشاعرِ، كلما خَطتْ نحو الخارج، تزداد دقات قلبي قوة، ويتملكني الخوف والرهبة، لأول مرة أرفض أن أبقى وحدي، وعجبتُ للقط الأسود تعقَّب سلوى حتى الخارج، ورأيتها تربِّت على رأسه وتمضي كمن يسير في جنازة، ولأول مرة رحلَتْ دون أن توقع قُبلةَ وداعٍ على خدي.

يا عدنان.... صدقني.... ربَّما عرفت سيرتي المؤلمة لكن ظللت بالنسبة إليك نصًّا شفهيًّا لا غير، ولا تعتمدها لسبر أغواري وفهمي، فلا أحد

في منـأى عن الضجـر، ولا أحد ينجو من الوجع القادم من وراء أسـوار طفولتـه، ولا أحـد لا يمنعه أن يكون ذئبًا سـوى ترويـض كل الافتراس الممكن في غريزته وغضبه وانتقامه..!

يـا عدنان... قلتَ كلمتكَ ورحلتَ... أنت الآن حيث تنتظر قيامتك وقد أعلنت قيامة لي في الدنيا قبل النفخ في البوق...

وليكن.... اسمع.... علَّ كلماتي تتسرَّب إلى روحك بمعجزة ربانية... وعلَّنا نرتاح معًا... فلا أحد منا كان خصمَ الآخرِ... وإني لما اطَّلعت على رسـالتك فهمتُ مدى الفوضى التي كانت تسـيطر عـلى حياتك، ومدى المفارقات والتناقضات في مسارك، وشعرت بألمكَ... بوجعكَ... لم تكن زوجًا مزيفا يمثِّل السعادة في بيتي، ويهرب من الضجر نحو معابر أخرى تؤجِّل الألم فقط، لقد كنتَ معذبًا، وأكبر جحيمك أنك لم تكسر أصنامك ولم تهشِّـم المرآة التي تنظر إليها كل صباح، فتخبرك بما تريد أن تسـمع ثم تصوغ لك الصورة التي تريحك...!

أنـا أيضًا كنت وحيدة... مكتئبة... أروِّض ألمي بانشـغالي بتربية ابنتي وتلبية حاجاتك مهما بدت لك صغيرة...

أنـا أيضًا كنت خائفـةً، منهارة... لكني لم أصوب فوهة غضبي إليك، كنـت ألتمس لك الأعذار، لم أقسُ عليك رغم أنني كنت كفرسٍ جريحةٍ، آخـر أمانيهـا أن يقصر زمـن ألمها برصاصـة في الجبـين.. ولكني اخترت العيش وبإلحاح، والركض وتحمُّل الألم في الوقت نفسه....

أيها الراحل...

أنـا امـرأة لم تعرف غير زوجها، نشـأتُ يتيمـةَ الأبِ، وحين تزوجَتْ أمي غصبًا من أهلها، لأن المرأة الأرملة أو المطلقة في عُرف قبيلتها شـبهة وعـار، فتحت عيني على رجل أناديه أبي، وكل الناس ينادونه بـ"العجل" في قريـة نائية منغرسـة في ضلوع الأطلس المتوسـط ، حيـث مركز القرية مجرد سـاحة كبيرة للبؤس والفراغ، والجريمة المرتبطة بالبغاء الذي سـلط على عدد من مناطق الأطلس المتوسـط، فاختلط العار الذي أرادوه قاتلًا لفرسـان أبناء منطقـة زيان للزج بهم في صمت الخـزي، بالعوز والزراعة المحدودة وبالبطالة.

نشـأتُ في مجمـع مـن الـدور بُنيت مـن الحجـر يسـمى " دوارًا" يلفُّه الصمت والعيش الضنك، حياتنا في بيوتٍ منحازةٍ باردة كشتائنا الطويل، كالرغيـف والأسرة، وسـائدنا لو فتحـت أسرارنا سـتحكي عن الخوف لا غـير، فنحن ودعنـا الأحلام صبايـا لأن ديارنا مجرَّد مخابئ من أنفسـنا في العتـمات المتتابعـة التي تختفي مؤقتًـا فقط عند أول خيـط أبيض لفجر متسرِّع، فقناديلنا خجولة تُرينا فقط الظلال والأشـكال المخيفة، واللبس عنوان العلاقـات والحوارات، كأننا مطلوب منـا أن نخفي حتى رمادنا، ديار خذلَتْها الطبيعة فقسَـتْ عليها، ترعى أغنامها العجاف بين الحجارة والفـراغ، ويـزرع الفلاحـون ما لا يسـد حاجياتهم العاديـة، والمرأة مجرد متـن لنقل كتـل الحطب من الأعـالي والظهور قُضَّت والأيادي تشـقَّقت والأجسام هزلت!!

حيث نشـأتُ بالأطلس المتوسـط، على بُعـد كيلومترات مـن الديار، كانت بيوت الدعارة التي تزوِّد قرية تغسالين والنواحي بنشاط اقتصادي عفِن لكنه يضمن البقاء لا الرفاهية والكبرياء، وحول هذه البلدة المظلومة كنسـائها قام اقتصـاد وتجارة وعلاقات ومافيات ومهـن خاصَّة، وزادت قسـوة المناخ البارد من الهجرة والهروب والموت المبكر، الهجرة من العوز والعـار، مـن بلدة يضطر أهلهـا للكتابة على الأبواب مـا يميز بيوتهم عن دور القـوادة عبارات الخنـوع، تكتب على الأبـواب "دار المتزوجين، دق وادخـل" والأصل أن العاهرات يأتين مـن مناطق مختلفة، ويجدن في بلدة تغسـالين الأمان وتجاهل السـلطة والدرك.. هناك نشأتُ في الخوف وكل ليلة خبر كالأسطورة، والسير في أزقة البلدة شبهة. تغسالين مسقط رأسي بلدة ظُلمت بالعقاب الجماعي، وأقسـى عقاب أن تحمل في بطاقة هويتك اسم بلدة لا تستطيع ذكره خوفًا من السخرية والعار.

وحين بلغت سـنًّا ما، بعـد العاشرة بقليل... غدوتُ طريدةً جنسـية، فالأنوثـة تنفجـر في الجبـل باكـرًا، وتُسـتباح بكلمـة بين رجلـين وقراءة للفاتحـة، والرجل الذي كـبرت في حضنه حاول اغتصـابي، بل أخذ مني طفولتـي وبراءتي وعفويتي وسـلامي النفسي، كنت صبيـة لكني فهمت أن هناك شـيئًا ما غير سـوي يفعله "العجل" بي، فشججت جبهته بهاتفٍ ثقيل لا يعمل كان يضعه في غرفة نومه زينةً وتباهيًا، وكانت أمي في الفناء تكنسـه، وسمعت ما سـمعت، فهرعت إلينا حتى أسـقطت الفانوس في

تلك الليلة الحالكة، أردت أن أتكلم... أن أشرح لها... أن أبكي في حضنها.... أن أخاف فحسب... أن أكون حزينة في كنفها، فصفعتني ونهرتني وأمرتني بالصمت، وبالذهاب للنوم في غرفتي...

خذلتني أمي... انتصرت للجلاد وسحبت من روحي آخر خيط ضوء، أخذت بيد زوجها وعكفت تضمد جراحه، وتستلطفه وتستسمحه، أما أنا فكان علي ألا أبكي وأصمت... أصمت...

لا أعرف.... هل توعدها وهددها بالرحيل...؟!

فلمدة أربعة أيام ما تركت دارًا في البلدة إلا وتوسلت لرجالها وأهلها أن يثنوا العجل عن هجرها، وكلمه شيخ البلدة، وكان رجلًا مهاب الجانب لأصله وعدله وكرمه، دعاه إلى جمع من الناس، ووعظه ونصحه بعدم هجر أمي، بل نهره وهدَّده، فأقسم العجل أنه لا يفكر في الأمر ولن يرحل ويهجر أمي، فانفضَّ الجمع ولا أحد تحدث عن خيط الضوء الذي سُلب من روحي وعن الضغينة التي تذوقتها لأول مرة..!

وفي اليوم الموالي خرج العجل في غبش الظلام ولم يعد... هجرها ورحل دون رجعة... قالت أمي ذاك الصباح: "أخذ سواريَّ الذهبيَّيْن، وقلادتي وكل ما ادخرت وهجرني... ونحطت وانتحبت حتى قطعت القلوب ولانت لها أفئدة الرجال فتوعدوه بالقتل إن عثروا عليه.

أما أمـي فـما انفكت تبحـث عنـه في أكثر مـن بلـدة، وسـوق وقرية وجبل... وسـألت عنـه الغريب والقريـب حتى يئسـت، فأغلقت الدار وعـادت لدار خالي سي موح، وأرسـلتني مـع خالتي إلى الـدار البيضاء، حيث آخر كلمة سـمعتها منها: "اخرجي من هنا..! فأي قوادة قد تطمع فيـك وتحولـك عاهـرة في البلدة... وقـد يزوجك خالك مـن أول رجل يطـرق الباب... اهربي... فأنت جميلة ويسـهل اللعـب بعقلك... اذهبي بعيـدًا عند خالتك....! وهناك تابعي دراسـتك... فالـدار البيضاء كبيرة جدًّا، وسـتختفين فيها... ولن تعزلك العيون وتفترسك الشوارع.... لا تفزعي...."!

ألم تكن أمي حكيمة يا عدنان...؟! أعرف أن الموتى لا يسـمعون ولا يـردون... لكنـي حتى أنا لي قصـة... قصة الفرس الجريحـة التي تركض عرجـاء في مضـمار الحيـاة... وليس من حقهـا أن تطلب ضـمادًا لنزيفها المزمن..

اختيـار صائـب من أمـي، ولو بحجـة تهريبي من عالم الدعـارة الذي اسـتوطن قريتنا الفقيرة، حيث غدت السـياحة الجنسية الداخلية عصب الاقتصاد بها، فالدار البيضاء مدينة الحلم والثروة والحضارة، وبها درست قبل أن ألتحـق بالجامعة بالرباط، وفعلا اختفيت، وكنت أجد صعوبة في ذكـر أصـلي، لأن الناس نسـوا موحا وحمو الزياني أسـد مـن منطقتي قهر الفرنسـيين سـنة ١٩١٤ في يوم مشـهود في معركة الهري، واحتفظوا فقط

بصـور الدعارة والفتيات اللواتي يأتين من كل مكان للعمل عند قوادات تحت أعين السلطة.

تلـك السـلطة المزدوجـة المعايـير... كأنها تسـتعين باقتصـاد الدعارة لضمان الشغل لمختلف الحرف و القطاعات... في غياب منشآت صناعية تشغل الشباب... فالدعارة هناك تمتصُّ الفقر وتعطل الغضب.

يقـول البعض: "إنه العـار الذي أنزله النظام بالمنطقة عقابًا لها... فكل مدبري الانقلابات من الأطلس المتوسـط، ومحاولة مولاي بوعزة كثورةٍ معزولةٍ جـرحٌ عميق في تاريخ المغرب، الدولة لم تغفر بعدُ للمنطقة... أو ربما طوت الصفحة ولم ننتبه بعدُ..."!

يا عدنان... لو كنت قادرًا على سماعي...!

أنا امرأة خذلتها أمها، ولم تسـتطع أن تبوح لها بما كان يفعله بهم معلم الصبيـان القرآن بالـدوار في الكُتَّاب المجاور للجامـع الصغير ذي القاعة الواحـدة، كان يضـع كل واحـد أو واحدة في حجـرة ويوهمنا بلعب لعبة يسـميها لعبة الناعورة، فيهتـز ونهتز معه نضج بالضحك بـراءةً وجهلًا، وكان يـدس يده حيث شـاء، ولبراءتنا كنا نحب لعبـة الناعورة من معلم للقـرآن حفظـه ولم يفهمـه، لا يفقه في اللغة ولا التفسـير، فقـد كان دوره كتابـة ما يجب أن نحفظ عن ظهـر قلب بالحبر الصوفي واليراعة القصبية، وكل جزء يحفظ يمحى بعد غسله بالصلصال وهكذا..

وكان يحتفظ بعلال السمين، حين ننسحب بعد العصر ليورد له الماء، وكان علال يبدو حزينًا وحيدًا، منعزلًا لا يطلب لعبة الناعورة، حين بلغ الخامسة عشرة ترصَّد لمعلم الصبيان فجرًا... وطعنه بكل قوة وهو يبكي بكاءً مُرًّا حتى تشوَّهت الجثة، وكل جيلنا من الفتيات والفتيان يعرفون لِمَ قتل علال ذاك الرجل الذي جعل علالا السمين مُطرَق الجبين، هو الآن حرٌّ في الديار، لم يتخطَّ ألمه، جُن جنونًا خفيفًا... وغدا يعيش من صدقات الناس، ويحلُّ ببلدة تغسالين صباحًا للتسول ويعود مساء للنوم في بيت والديه الذين ماتا كمدًا، أما إخوته فقد تفرقوا في أرض الله الواسعة...!

نعم توقفت عن قراءة أشعارك... للأسف... لم تأخذ بعين الاعتبار أنني كنت رئيس مصلحة ثقافية في جريدة، وتشكَّل لدي ذوق وكفايات نقدية، وثقافة نقدية عارفة، لم أرد منحك وهْمًا، فقد كنتَ شاعرًا سطحيًّا ينقصك الخيال والمجاز السلس غير المتكلَّف... لم أستطع أن أجرح مشاعرك.. كان هذا رأيي، فتكوينك ومسارك السياسيان جفَّفا فيك لِين العبارة وموسيقى الشعر الداخلية من تشكلات ومفارقات وإيقاعات وموسيقى داخلية من الصوت والكلمة والتركيب، وأفسدا رشاقة الشعر، شقَّ عليَّ أن أقول لكَ إنك شاعر فاشل، تكتب القصيدة تقريرية كبيان حربي، أو تحريض سياسي، وفي الحب تكتب القصيدة بتراء بلا خيال ولا استعارة كفرس جموح... شعرك الغزلي مجرد شبق إيقاعي تغدو أنت البحر المسيطر والمرأة شاطئ رملي منسي، بل أنت السحاب

والمرأة ربوة مشتاقة على جزيرة الوحدة، شقَّ عليَّ أن أقول لك، أنك لا تنتصر شعريًّا للشعر.... للصورة... للمجاز... للاستعارة وللجمال عامة، بل للذات فتغلق الفهم لتغدو القصيدة تقرأ نفسها لنفسها، لهذا اعتبرت الشعر نخبويًّا.... لا... هو جماهيري إن لامست شغاف اللغة بمداد الكلمة الراقية....

شقَّ عليَّ أن أقول لك إنك خُلقت للتدريس، فأنت قويُّ الحجة، واسع المصادر ثريُّ المعلومات منهجيُّ الطرح، سلس التلقين، قوي المحاضرة، قلت لك يوما: "تفرَّغ للتدريس فهو خيرٌ لك... وأنت محاضر بارع...". وندمت لأنني أجيد استجلاء الحقد من العيون حين تجرح الفيلة، هل لأنني قلت لك بطريقتي أن الإبداع دفق من روح تمنح الشعر رحيق الوجود، وأنه مغلق الينابيع، فكرت في الرحيل..؟! قلت لك يومًا رأيي بعدما قرأت نصًّا نقديًّا لك: "ربنا خلقك للنقد وثقافتك جامعة، وما أتى مبدع إلى النقد إلا طوره، فكبار النقاد مبدعون فشلوا في الشعر مثلا.. فاختر وظيفة النقد... فثقافتك العالمة العارفة ستخدم أدبًا يعاني من المتابعة الموضوعية ومن ظهور جوقة أشباه النقاد... والكتبة... افضح التفاهة وفكِّكْ مافيات صناعة ذائقة مزيفة ورموز أدبية ضعيفة..."!

هل مقولاتي هذه هي التي جعلتك تفكر في الرحيل بحثًا عن ناقد مزيف على مشرب عفن...؟!

والحقيقة التي كان عليَّ قولها لك وجهًا لوجهٍ: النقد لا يليق بك ولا

لـك، فأنت متطـرف القراءة حدَّ التحامل... حقود.. حسـود، وقد تخلق بين الذات والموضوع ويغلبك الحسـد على العدل. والنقدُ يتطلَّب مسـافةً مـن الذات والذات الأخرى، لهذا توقفت عـن حثك للتوجه للنقد حتى لا أذبحك كما حاولت أنت بوهم يجر عليك الخيبات...

ألم تُدبِّـج مقـالاتٍ نقديَّـةً تحاملـتَ فيهـا فقط لتـؤدِّب أديبًـا في نظرك مغـرورًا...؟! ألم تكتـب مقالةً نقديَّة تحاملتَ فيها على شـاعر شـاب لأنه تجاوزك خيالًا ولغةً وكنت تغار منه....؟!

مـن يقرأ رسـالتك وأنت تتحدث عن ذاتك المبدعـة وحياة المبدعين، ونرجسـيتهم وأنانيتهـم، يـدرك أنـك واهـم وبـلا أفـق... المبـدع كائن إنساني... عُملته المحبة.... وجسره للآخرين يداه البيضاوان، ونصوصه الجميلـة، فهو صانع الجمال والأمل، ومن يصنع الأمل لا يكون أنانيًّا ولا نرجسيًّا...

عدنـان... سـامحني لم تكـن أبـدًا مبدعًـا... صنعـتَ لنفسـك صورةً وصدقتهـا، أما مديح الحانات والجلسـات الخاصَّة، فأمرها مزيف ملحق بالتفاهـة. ماذا بقـي...؟! دفء الفراش.... لقد كنـا مختلفين في المرجعية وفي رؤيتنا للإنسـان والمجتمع، لقد تزوجت امـرأةً لها خيباتها وأسرارها وجروحهـا وعقدها، لكني تربيتُ تربية محافظة، فزوج خالتي كان إمامًا، وبـين يديـه حفظت أجـزاء مهمَّة من القـرآن الكريـم وصرت متدينة... أصـلي... وأصوم... وأنت كنت علمانيًّا مؤمنًـا... فقد كنتَ ، كما تُصرح

، تؤمن بالدولة المدنية حيث الدين شأن فردي، ولكنك تؤمن بالله والحساب والجنة والجحيم... فالعلماني ليس بالضرورة ملحدًا حتى يقول علماني ملحد... هذا قولك...

عدنان.. عفوًا لا أملك خبرة بائعات الجنس... فتلك مهنة.. وأنا امرأة محافظة ، غير متفتحة ولا متحللة، عاشرتك جنسيًّا كامرأة متزوجة حريصة أن تكبح صوتَها في السرير خوفًا من كل تأويل وكبتُّ نشوتي خوفًا من أن أُصنَّف مجرِّبة وعاهرة.... هذا ما تعلمتُه في ثقافتي المحافِظة جنسيًّا... وأنت.. يا عدنان حين اكتشفت جنسًا آخر في أسرة البغاء فبالضرورة هو جنس متحرِّر بلا قيود ولا تبعات... إما احترافي أو إباحي... وشتان ما بين الفراشين...!

قلتَ إنني أصبحت مجرَّد خشبة على السرير.... للأسف... لم تعلم أننا تجاوزنا وهج الشبق وولجنا زمن الشغف... وأن الجسد تترسب فيه العلل والوجدان يعطب بالضجر... الخشبة التي تعيبها كانت زوجةً تمنح زوجَها حق إطفاء غريزة مشتعلة وهي منهكة أو مريضة... وكان يكفيها لمسة حنونة منكَ وتَساكنٌ يمهِّد لكل علاقة جنسية وينعش ما تطفئه الأيام والعلل ومتاعب العمل...

لقد ظللتُ أخدمك كزوجة رغم كل الظروف، خدمتك بحب واحترام بعدما عدتَ لسريري مقعدًا، لا تتبوّل دون مساعدة مني... وكل رغبة طبيعية غدت عندكَ شاقَّةً وبدوني مستحيلةً، لقد أديتُ واجبي

كزوجة تعرف ما لها وما عليها، ربما لم أكن مثالية لكنني لست نادمةً، ربما فشلت أن أكون زوجةً وخليلةً في الوقت نفسه، لأني في قبيلتي ووسطي وأسرتي، تعلَّمت دَورَ الزوجة، ودورُ العاهرة أعرفه لكنني لا أُتقنه، لم أكن أعلم أنك تحلم بزوجة تتقن دور العاهرة، وكل الشهوة في تمردها على المألوف...!

كنتُ زوجةً غير مَعنيَّة بدور العاهرة، لأن الدعارة مهنةٌ وتمثيلٌ وادِّعاءٌ وصناعةٌ، وأكثر مظاهرها تدليسٌ وتزييف للعواطف، لكن كثيرًا من الرجال يظنون أنفسهم فرسانًا في أَسِرة بائعات الهوى، وهم فقط يحصلون على خدمة متقنَة حسب الطلب والأجر.

أسامحك... لأنك زوجي وأم ابنتي... وجدُّ دانيال.. وقد رحلتَ، والراحلون أدَّوْا دورَهم واختفوا.... ولا لسان دفاع لكَ اليوم... وبالتالي... أنتَ مدين لي بالدعاء لك بالرحمة والمغفرة.... وسأقوم بدوري كزوجةٍ لآخرِ رمق في حياتي، ويجدر بي الدعاء لك والترحُّم عليك وطلب المغفرة والثواب.

رسالتك يا عدنان خفَّف من ثقلها وآلامها، أنها كُتبت منذ أكثر من خمس سنوات، يعني أنك أخذتَ قرار الرحيل وتراجعتَ عنه، لقد متَّ في فراشي، وعشنا معًا آخر سنة من مرضك أجملَ سنة، كتبتَ لي أكثر من قصيدة، طبعًا لستَ الشرَّ كلَّه، فقط كنتَ ضائعًا، وكنا لا نتقن تواصل الأزواج في الأزمات، سأطبع الديوان وأُسميه "ابتسامة الزرافة"، وسأقيم

لـك حفـلَ تأبين وتقديـم للديـوان، يحضره كل مـن يحبنـا... أصهارنا.. ابنتـك... حفيدك... لتموت شـاعرًا كـما تمنيتَ... ولتظـلَّ صورة الأب والجد معلَّقة في بيتي.

وقريبًـا سـأعلن الصفـحَ عن الكل، حتى عـن مُعلِّم الصبيـان القرآنَ الكريم، وعن أمي... مضى زمن لم أرها...عليَّ أن أرحل إليها، أن أتصالح مع بلدتي تغسـالين، فالعار ليس عارَنَا، وهي جذوري مهما ألبسـوها جبَّة ممزَّقـة لترقـص في عرس الخصيان، سـأقول بمـلء فمـي إني منها فخورة بها، فأنا من أرض "موحا وحمو الزياني"، والزاوية السـملالية، أنا مشتاقة لأبكي ذاك البكاء المؤجَّل منذ سنين في حضن أمي لأجد السلام الروحي، أمضي غير خائفةٍ من سفر ولا غفر.

٥

حلَّـت سـلوى ذاك الأحد مبكرةً قبل التاسـعة صباحًـا، لترافقني إلى مسقط رأسي، تغيَّرَتْ فيها أشياء كثيرة، وضعت قلادةً وسوارًا، وقرطَيْن، ولبسـت فستانًا أزرق غير ضيِّق حتى لا يُبدي تضاريس جسدها، ونحن مسافران إلى دياري، وغيَّرتْ تسريحتها فرطَّبت شعرها المجعَّد، وقصصته قصـة قصيرة، وبـدا جمالٌ خفيٌّ كان فيهـا، خفتُ أن أُبـدي إعجابي فأثير حفيظتها، فاسـتقبلتها عناقًا، ذرفت دمعـةً سريعة وحضنتني مرة أخرى، كـم هـي غنيَّة بالمشـاعر هذه المـرأة، رمقَتْ صـورة عدنان كبـيرة الحجم وذهبيَّة الإطار على الجدار المقابل لباب الشـقة، فتوقفَتْ عندها مليًّا وهي تتأمَّـل بصمت، ثم قالـت: "رحمه الله" وأمَّنتُ عـلى دعائها بصوت عالٍ، وأنا أعد لها فنجان قهوة سـوداء خاطبته وهي متمدِّدة في الصالة: "لم أعد في حاجة إلى حرق الرسالة.... هي قديمة على كل حال... ومَن يدري... فالفرق الزمني طويل... ربما غيَّر رأيه ومواقفه.... ما رأيك...؟!

- صدقتِ،أشـياء كثيرة تتغيَّر بين ليلة وأخرى.... فما بالك بأكثر من خمس سنين... لكن كونه لم يرحل بعد كتابة الرسالة ترجح فرضية التراجـع...أو أنه ربما كان ثَمِلًا فتصنـع أكثر ما باح .... وربما هذه الرسالة مجرد هوس رجل مبدع ثمل في ليلة صعبة...

ثم أردفت بقلق:

- هل حرقتِ الرسالة....؟

وأنا أضع فنجان القهوة لها قلتُ ساخرة:

- أحرقتها وبدَّدت رمادها... يا سلوى لا بد أن تظل صورة عدنان كما هي في عقل صفاء... والحفيد يحتاج إلى جد بطل لا...

- اصمتي...! لا أصدق أكثر ما قال سوى أنك مهملة...

- كيف...؟!

- الفراش فراش... وليس مجرَّد علاقة عابرة...!

- علِّميني يا عازبة...

- تعلمي من الإنترنت... العالم تطور....!

- أوكي.... وأنت يبدو أنك أخذتِ قرارات مهمة في حياتك..!

- نعم... غيَّرت فقط شكلي لا أفكاري...

- جيد...! لاقَ بك هذا الفستان الأزرق... تبدين مثيرة...!

- دعينا من هذا...! هل قررتِ أخيرًا الصفح عن أمك..؟

- نعم.... أريد صفحًا كليًّا في زمن واحد... لأمضي في سلام...

فجأة ترامى إلى مسامعنا، صخب وصياح في الخارج، هرعنا في عجلةٍ وفضول غامر نحو الشرفة لنكتشف ما يجري، فالأمر مريب في هذه الإقامة، وقلَّما يُسمع فيها الصخب والتصايح، عدا صخب بعض الشباب ليلًا في شقق أوليائهم الأثرياء الذين لا يظهرون أبدًا، ولا يثيرون

حفيظة حراس الإقامة، وقد أخذوا منهم ثمن الصمت، وقد كنت أفهم هذا من ترديد عبارات جارية على لسان حارس البوابة جلول حين يشكو البعض: "إنهم مجرد شباب يحتفلون بأعياد الميلاد أو بنجاح أحدهم، وهم أبناء وبنات جهات مهمة، لا أريد أن أكون طرفًا في أي نزاع معهم، ألم تروا سيارات الشرطة تمرُّ وتسمع ما تسمعون وتمضي بسلام، هؤلاء أبناء الحيتان الكبيرة، ويفترس آباؤهم كلَّ من يزعجهم أو أبناءهم..."!

كانت باحة الإقامة مكتظَّة بالناس حتى الغرباء، والكل يشرئبُّ بأعناقِه نحو العمارة التي تسكنها تلك الأرملة خليلة جلول الحارس الذي لم يظهر لي عند البوابة ولا مع الشرطة، نزلتُ الأدراج بسرعة حتى آلمني حوضي، وشققتُ الجموع بيدي وليس عليَّ إلا قميص نوم لكن غير شفاف وثقيل وأنتعل خُفَّي نوم مزينَيْن برأسي أرنب، وغطيت رأسي بما وجدت منديلا ربطته نحو قفاي، أقتفي أثر فضولي المشاغب بحماسٍ، كأنني في سنتي الأولى في عملي، فالصحافة تظل في الدم إلى الأبد، ولا أحد تقاعد وتعطلت فيه غريزة طورها للبحث والتنقيب والمقابلات والتقصي. علا منسوب الأدرينالين في دمي، وأردتُ السبق كفتحٍ كبيرٍ، رغم أنني متقاعدة، فيمكنني النشر، حيث شئتُ بعدما توصَّلت ببطاقاتي الشرفية، مما يسمح لي بالعمل بشكل غير نظامي في زمن احتضار الورق وزحف الصحافة الرقمية، قريبًا ستحلُّ الكاميرا محلَّ الصورة والقلم، وسنرى صحافيين وصحافيات يؤرخن للحدث توًّا بكاميراتهم، مما

يهدد الصحافة الورقية التي ستظل حتمًا مَعنيَّة، ولـن يخرجها من الأزمة سـوى المزاوجة بين النمطين واعتماد صحافة التحليل والتحقيق سلطان الإعلام.... جلاد صحافي المكاتب... الذين لا يغادرون مقرات عملهم.

سـألت أحدهم -ولم يكن من أهل الإقامة كما علمتُ- عما يقع، فقال وهو يهز رأسه أسفًا موحدًا الله: "قُتلت فاطمة... تلك السيدة التي تسكن في العمارة هناك حيث الزحام على بوابتها، صاحبة سيارة "فيات بونتو" البنية اللون البراقة ، وجدوا جثتها اليوم متحلِّلة بعد شَم الجيران روائح عفنة تتسرَّب من شقتها التي لم تغادرها منذ أسبوعين كما قالوا...! نحن في الحي الشعبي المجاور لكم نعرفها جيدًا، فهي راقصة وعاهرة من النوع الراقي، كانت تأتي برجال من عِليَة القوم إلى شقتها ومعهم نساء فتُشرف على الليلة خمرًا ورقصًا، الكل يهابها لعلاقاتها القوية... لكنها في الحقيقة كانت طيبة وكريمة ولا تبخل على نساء حيِّنَا بشيء..."! كان أحد آخر قُربنا يتابع حديث الرجل فتدخَّل دون أن يُطلَب منه شيء وقال بيقين: "لا بد أن الذي قتلها واحد من الذين كانوا يرتادون شقتها... مَن يدري فهذا زمن التقاط الصور والابتزاز.... لا بد أن القتل كان بدافع الخوف من الفضيحة"! عاد الأول وأخذ الكلمة من الثاني بعدما رمقَه بنظرة قاسية وزجرَه بكتفه وقال: "اسمعي... يا سيدتي! الآن الشرطة العلمية والطبيب في شقتها.. وقريبًا تتضح الأمور"! صخبت الجموع من عملية زجرٍ قامت بها القوات العمومية لفض التجمهر، والتخفيف من أمواج

البشر، فتراجع الكل وتقدمتُ أنا نحو العمارة، فخاطبني ضابط أمن بغضب" إلى أين....؟ توقفي.. !وعودي أدراجك... !السنا في موسم الفروسية..." لحسن حظي أنزلت معي بطاقة الصحافة، فأشهرتها له، وعلق على صحافيَّة شرفيَّة "متقاعدة إذن..." رددتُ عليه بقوة وكبرياء: "الكتاب والكاتبات والصحافيون والصحافيات يتقاعدون فقط على الورق.... لا زلت نشطة في الميدان كصحافيَّة مستقلة.."! ابتسم بمكر، وأبعد جثته البدينة عن طريقي.

وتتبعتُ خيط الخبر، وعبَرَتْ خلدي افتراضات متعدِّدة، إذا كانت راقصة تمارس الدعارة الراقية، فكيف اتخذت من حارس البوابة جلولا خليلًا....؟! أكانت تشتري صمتَه وتعاونه...؟! تقدَّم نحوي الضابط نفسه وهمس في أذني: "الضحية ذُبحت منذ مدة، حدَّد الطبيب الشرعي مدةً لا تقل عن خمسة عشر يومًا، وذُبحت بسكين طبخ، لا آثار للضرب على جثتها، القاتل صبَّ عليها الخمر، وقلب الشقة رأسًا على عقب، كأنه يبحث عن شيء ما... قاتِلُها يعرفها حتمًا، ما دام لم يقتحم الشقة مكسرًا القفل، والنوافذ في حالة جيدة، ويبدو أنها تعرفه حق المعرفة وهي مَن فتحت له". وقال وهو يبتسم إنه يعرفني جيدًا وتذكرني أيام العز الصحافي.... والضحية اسمها فاطمة ياما، العمر: ثماني وعشرون سنة، العمل: راقصة محترفة في ملهى الكورنيش الحالم... ليلي... آخر عنوان لها بمنطقة حسان، لكن صاحب الشقة يقول إنه اكتراها لرجل وكل معاملاتهم بنكيَّة ولا يعرفها... الغريب في هذه القضية وهناك أمنحك

السبق..." توقف عن الكلام وقهقهه طويلًا ثم أردف: "لا أثر لبصمات على السكين ولا الجثة ولا الأماكن الذي فتشها، هو ربما محترف أو بكل بساطة ظن أنه عمل كل احتياطاته، ليس لنا غير بصمات مختلفة على الحاجز في السلالم.... والغبي الحاج جلول لم يركب الكاميرا بعدُ....".

شكرته مبتسمةً، وانسحب بعيدًا وهو يهز رأسه.

وكان أول متهم عندي هو جلول خليلها حارس البوابة... الغائب اليوم عن مقر عمله، وحين سألت زميلَه أكد لي أنه متغيب منذ شهر، بعدما خضع لعملية جراحية للتخلُّص من المرارة. كان الخبر يأتي سلسًا من الأغراب عن الإقامة من الأحياء الشعبية دون تحفُّظ وبكل عفوية، بينما أهل الإقامة ينظرون من بعيد فقط كأنهم غير مَعنيِّين، يُنزهون كلامهم، أو ينطلقون بوجوم وخوف إلى مقرَّات عملهم، ولا يسألون عما وقع، عدا رئيس اتحاد الملاك الحاج رضوان جاء مهرولًا نحو الشرطة وفي يده سبحة، وبدا خائفًا مضطربًا وهو يرد على أسئلة المحققين ملتفتًا يمينًا ويسارًا، وفي لحظة ساعده شرطي على الجلوس بعدما أحسَّ بدوخة وأتوه بكأس ماء. استحضرتُ عدنان، ماذا كان سيقول معلقًا على الحدث؟! حتمًا كان سيقول: "النهاية متعدِّدة، مختلفة التجليات والسياقات، لكنه في نهاية الأمر مجرَّد عدَم... فناء... ليس هناك موت قبل الأوان... إنه دومًا الأوان حين نموت..."!

وابتسمت لأنني أعدتُ العبارات التي ذكرها ذات يوم وأنا أنقل له خبر موت رجلٍ على الطريق بيد قُطاع الطريق من أجل مبلغ زهيد.

عدتُ للشقة، وتقاسمتُ المعلومات مع سلوى التي وضعت أصابعها على فمها من الدهشة، وكادت تصرخ حينما علمَتْ أن الضحية ثلاثينيَّة وراقصة ملهى، وأن القاتل لم يكتفِ بذبحها بل مثَّل بجثتها وسكب قنينة نبيذ على جسدها، وأنها هي مَن فتحت له حسمًا...!

انهارت سلوى على الأريكة، وجحظت عيناها من وَقع الحدث، بينما طفق القط الأسود يعبث بفستانها وهي شاردة العقل والخاطر، ثم نطقت بقلقٍ وهي تنظر في الأفق البعيد: "إنها قضية غيرة... أو انتقام.... أو نصب.... أو كل هذا معًا...."!

من الشرفة بدا الحاج رضوان متعبًا ومرتبكًا، عيناه تدوران في محجريهما بطريقة غريبة، وقد تعرَّض لتقريع المُحقِّقين عن عدم تعميمه للكاميرات لحد الساعة، فالسكان وقَّعوا له على محضر توزيع الكاميرات في الأدراج والسلام، لكنه يبدو أنه أهمل عددًا من العمارات، لأسباب مريبة.

تلاشت الحشود بعدما انطلقت خارج الإقامة سيارة مصلحة التشريح تنقل الجثة، وتبعتها سيارة على متنها ممثل النيابة العامة، وبسرعة انطلقت الشاحنة الصغيرة للشرطة القضائية التقنية والعلمية، ثم سيارة مصلحة الشرطة القضائية، وسيارات رجال الأمن والسلطة المحلية وبعض المنتخبين، وانطلق وراءهم سيارات لصحفيين يسكنهم

وهْـمُ السَّـبق الصحفي، ثم عاد الصمت إلى أرجـاء الإقامة وطفق بعض الأطفال يسـبحون في المسـبح الجماعـي، وانطلقت موسـيقى صاخبة من شُـقق الشـباب، وحين لامس اليومُ منتصفَ الظهيرة، كنت أنا وسـلوى نشدُّ الرحال في سيارتها نحو قرية تغسالين، وطول الطريق نحلل الجريمة والحافز الممكن والمجرمين المحتمَلين... ولمَ لا المجرمة المحتملة؟!

دخلنا تغسالين والشمس تعاني من نزيف غروبها، تتطلع للدنيا بعيون حمراء شـاحبة، تنـشر الظلال الخفيفة، وتختفي رويـدًا رويدًا وراء الجبال، من حيـث تزحف الظلمة خرقًـا كالأكباد، وعلى الـدروب قطعان الماعز والأغنـام تقفل عائدةً في جوٍّ بديع، تتنسَّـم نسـيم ليلٍ أعلـن زمنه، لطف حرارة الأجواء.

توقفنـا لحظـةً في مركز القريـة، ثم تسـابق نحونا الرجال والشـباب، يقترحـون علينـا دُورًا للكـراء، وزحـف آخـرون يسـألوننا إن كان معنا رجـال، تحمَّلتُ...فهـذه قريتي، وديـاري على سـفح الجبـل في دوار يبعد بضعـةَ كيلومترات، دياري التـي أعلم أنها تتنفس مـن الدعارة، ويقتات اقتصادها من هذا الجنس العفن الذي سُلِّط عليها، وفي لحظةٍ ظهر شباب مـن حيـث لا أدري، ونهـروا القـوَّادات والقوَّادين، وكالوا لنا الشـتائم، وكادوا يكسرون لنا السيارة وهم يأمروننا بالعودة من حيث أتينا، فأرقام السيارة من الدار البيضاء، وظنوا أننا فتاتا هوى، لهذا كانوا معنا قاسين حدَّ الوقاحة والعنف، وترجَّلت من السيارة، وأنا بين الغضب والحزن وقلتُ

بصوتٍ عالٍ: "لسـنا عاهرتين.... أنا نجوى الصحافيَّة... أنا من هنا.... وفخورة بهذه الأرض... ما وقع قبل قليل تزييف للتاريخ... نحن أرض الكرامة والحرية والإباء... نحن أرض الشهداء والفدائيين... أنا من آيت أدرار.... نجوى الزيانية...

ركـب الشـبابَ الخجـلُ، وطفقـوا يعتـذرون في ارتباكٍ، ثـم ارتفعت صفـارة سـيارة الدرك، متجهـةً نحونا يسـبقها ضوؤهـا الأزرق المترنِّح، فتفرَّق الشـباب، وما تفرق مَن زحف من القوادين، قصدني دركي وقال بغطرسـة: "مـا الذي أتى بكـم إلى هنا في هذ الوقت..."؟! ولأن سـلوى قاسـية مع القسـوة، وقحة حين يتطلَّب الأمر، دنت بوجهها من الدركي وقالت بحنق:

- هـل هنـاك إعلان بعـدم التجـول بالمغرب ونحـن لا نعلـم....؟! أم نحتـاج إلى رخصـة للتنقـل في بلدنا... أم أن تغسـالين لها وضع خاص...؟!!

صُدم الدركي، وغيَّر من لهجته فَلانَ لسانُه وقال مبتسمًا:

- لا... يـا سـيدتي... نحـن نقـوم بـما يُمـلي علينـا القانـون... فقط نخاف على سـلامة الـزوار... لا أكثر.. واللصـوص لا نعرف من أيـن يخرجون ويختلطـون بالـزوار، ومركزنا لا يخلـو من عشرات الشـكاوى يوميًّـا.... نحن هنـا للتأمين ونشر الأمـن والوقاية من الجريمة... لا غير...

هناك تدخلتُ بكبرياء وقلتُ له:

- لسنا زائرتين... ولا طالبتَيْ شهوة قذرة... أنا ابنة المنطقة، هنا ولدت ونشأت في الصبا... ونحن في زيارة خاطفة للأسرة، بدوار إيت أدرار... صحافيَّة وزميلتي أيضًا... ولم نأتِ في مهمة إعلامية لَكُنَّا اتصلنا بكم قبلُ، نحن هنا في زيارة اجتماعية عائلية محضة.... شكرًا على عنايتكم...

قيل لي إنهم هنا لا يرحبون بالصحافة، ولم أصدق إلا حين رأيتُ الذهول والتوجُّس في عيني الدركي الذي دعا صديقَه وكلَّمه همسًا في أذنه وأردف بلين:

- مرحبًا بكما...! نحن في خدمتكما... حذارِ فقط من قُطاع الطرق واللصوص، وهذا رقم هاتفي المحمول إن احتجتما إلى شيء... إلى اللقاء... طريق السلامة...!

ثم اختفت سيارة الدرك في الضباب الذي نزل كثيفًا، ولفَّ القرية لفًّا، حتى شقت الرؤية، واختلطت الحلكة مع الضباب، فتحولت القرية إلى عالم غامض سحري، لا يدل على وجوده غير أعمدة الضوء الشاحبة، وأضواء السيارات هنا وهناك، وبدت أرضًا بلا معالم بعدما زحف الإسمنت واختفت الدور التقليدية، وتفرَّق من زحف نحونا، وظل الشباب الذين كادوا أن يضربونا يلوحون لنا من بعيد، بينما سيارتنا تخترق القرية متجهةً نحو سفح الجبل صوب الدوار.

من بعيـدٍ يتعالَى صوت الغنـاء الأمازيغي، وإيقاع البنديـر متناغمًا مع إيقاعـات الطبيعـة، البيـوت فارغة كلهـا تقريبًا، هكذا تبدو مـن بعيد... مظلمـة لا ضوءَ فيها، وقـد ربطت مؤخرًا بالشـبكة الكهربائية، أصوات الغنـاء تعلـو، يبدو أن أهل الدوار في عرس مـا مجتمعون، لختان أو عقيقة أو زواج، ومـا نسـمعه ونحن نشـق هذه الطريق الصخريـة غير الممهدة، أصداء لرقصة أحيدوس، وفعلا وصلنا لساحة الدوار الكبيرة حيث تقام رقصـات أحيـدوس، جاء أحدهم ورحب بنا ربـما لا يعرفنا، وطلب من النسـاء أن يُفسـحن لنا مكانًا عـلى الأرض المغطاة بالـزرابي، في بلدتي... نسـاوي بـين الرجال والنسـاء عند التمتـع برقصات أحيـدوس بل حتى في المشـاركة فيها، تبدَّد الظلام، وزاد ضوء المصباح الكاشـف المعلَّق على عمـود من بهجة اللحظة، كانت سـلوى في ذهول وهي منتشـية بخِدر ما يقـع، كل هذا الفرح الجماعي تحـت النجوم ولا مكان للتمييز أو الوصاية على أحد، علمت أنه حفل ختان لطفل من دار آيت لمير.

هـا هـو الأطلس المتوسـط الأبيُّ الشـامخ الزاخـر بالبهاء، يخـرج نقيًّا كقطعةٍ فضية تحت شـلال مـاء، ها هو يريكم وجهه بعيـدًا عن القصص المزيفـة، والاغتيـال الـسري للذاكـرة والحضـارة، في رقصـة أحيـدوس يصطـف الرجـال والنسـاء جنبًـا إلى جنب، وتُعبِّر الأجسـاد بـكل حرية عـن الفرح أو الحبـور، بهزِّ الأكتـاف وتحريك الأيـدي والأرجل بتوجيه "الريس" قائد الرقصة".

أتوجه إلى سلوى وأقول لها بغبطة: "تابعي ما يقع، إنه الانسجام التام بين الوجود والإنسان، بين الكون والبشر، رقصة "أحيدوس" الآن تغلق الدائرة دائرة... كناية عن قمَّة الالتحام، بين سكان القبيلة، ثم تابعي ببصرك وقلبك وعقلك ما سيقع بعدها... شكل الرقصة غدا نصف دائري، موزعًا على صفين متقابلين من الراقصين، يتحلقون حول قائد الرقصة، الذي يضمن بإيقاع بنديره الانسجام التام ويرمم الخلل العارض.

ضغطت سلوى على يدي، وشعرتُ بها منشرحةً سعيدة وقالت: "حدثيني عن لباسهم..."!

ابتسمتُ لها وردَّدت على ترحيب النساء اللواتي يتابعن معنا أجواء الرقصة وقلت بفخر: "اللباس الموحَّد مقدَّس عند الراقصين والراقصات، ارتداء زي موحَّد تقليدي تاريخي وموروث ثقافي تاريخي.. الرجال في جلباب أبيض بهي كالحمائم وكالنجوم في السماء.. يعتمرون عمائم بيضاء... البياض رسالة حب وسلام... وينتعلون بلغات صفراوات، أما النساء، فكلهن يضعن على الرأس ذاك الثوب المزين بالأهداب والمسمى "السبنية" الصفراء ويرتدين قفاطين موحَّدة بيضاء اللون ويحتزمن بنطاق من الحرير، ويُزيِّن أنفسهن بالحلي الفضية من أقراط وأساور وقلادات. لا يمكن الاستهانة بدور المرأة في الرقصة فهي تضبط الإيقاع بحركات خفيفة بالأيدي وهزات إيقاعية للأكتاف، وهي شاعرة مرتجلة تغني للحب والطبيعة وضد الظلم والقهر.

ظـل الحفـل قائمًا ومـا تعـب لا الراقصـون ولا الراقصـات، تعدَّدت الأغاني والرقصات، تعيد النسـق نفسه من دائرة إلى نصف دائرة، للمرأة موقـع كموقـع الرجل في ضبط التلاحم والتناغـم، إلى حين كان علينا أن نتفـرق على موائد الطعام الذي كان عبـارةً عن طواجين لحم الماعز وخبز رقيق طازج بُعيدَ منتصف الليل بقليل.

رفعت الموائد وفسح المجال للشعر، فانطلق السجال الشعري يشارك فيه الرجل والمرأة بلا تمييز، سـجال يغنى مواويل قوية يردُّ صداها الجبل، حتى مطلع الفجر، فانسحبت النساء فجأةً بعضهن يحملن أطفالًا غارقين في النـوم، ثـم انتظر الرجال قليـلًا مطلع الفجر الكلي، حيـث أذن المؤذن فتفرقـوا للصلاة، ثم عادوا لباحـة الدوار لتناول الفطـور، حينها قصدنا دار خالي حيث تقيم أمي ورغبتنا في النوم جامحة نكاد ننام في الحقول.

قالت سلوى: "نسينا أمك"!

قلت: "بلى لقد كانت بعيدة عني... بين النسـاء... لم تكن سـعيدةً ولا حزينةً... كانت شاردة فقط... واختفت عن أنظاري بعد العشاء.."!

٦

لم نَصحُ حتى الظهيرة، نمنا كرضيعَيْن شَبِعا شبعًا من أثداء أميهما، ورغم القيظ وطنين الذباب، نمنا نومًا هادئًا، في غرفة حيطانها من الطين وسقفها من جذوع شجر الصنوبر والخيزران، لهذا كانت تصدُّ صهد الخارج، وكانت النافذة التي تكاد تلتصق بالأرض المواجهة للجبل مفتوحةً على هواء بارد يأتي محمَّلا بالنسائم من القمم.

دار خالي سي موح بسيطة متواضعة، مرح كالفناء غير مغطًّى، تتوزع على جوانبه خمس غرف، ومطبخ قديم أصيل بفرن طيني، يحطب له، محاطة بسور من الحجارة، وزريبة للبهائم ملاصقة بالدار لها مدخل من الخارج والداخل، فرح خالي وزوجته وابناه كثيرًا بحضورنا، وقد وصله الخبر في عرس الليلة الفارطة من نساء شبهوني بأني "لالة الغالية"، لم تغادر أمي بعدُ حجرتَها، فدخلتُ عليها، ارتميت في أحضانها وبكيت البكاء المؤجَّل منذ حاول العجل اغتصابي، ولأني أعرف أنني قوية حدَّ القسوة، فوجئت وأنا أحس بقطرات دمعها الساخن تنهمر على وجهي، ثم انتحبَتْ وبكَتْ حتى كادت أنفاسها تنقطع، أجلستني على فرشتها على الحصيرة ووضعت وسادة وراء ظهري وقالت وهي تكبح دمعها وتجاهد لتتمالك نفسها:

- اشتقتُ إليك يا صغيرتي..!!

- لم أعد صغيرة يا أمي... لقد شخت...

- الجميلات مثلك لا يشخن..

- بل شِخت وصرت أرملة.

- وليكن...! الفتيات هنا في عمر الزهور يترمَّلن...!

- أخاف... يا أمي.. !

- ممَّ يا صغيرتي..؟!

- مـن الآتي.. فأنا منهكة... متعبـة... ومن الماضي... فصورة العجل ما زالت في كوابيسي...

- العجل نال عقابه ورحل..

- لم يعاقَـب... ومثلـه لا يتوقفون... وأنا عاجزة عن اسـتعادة الحياة وذكراه أليمة..!

- قلـتُ لك نال عقابه كما نال الفقيه الذي كان يحفظكم القرآن عقابه الفظيع..

- آه... صاحب لعبة الناعورة... فليتعفن الآن في الجحيم...!

- أنـت أم وجـدة الآن... ولا بـد أن تشـغلي نفسـك بـشيء مـا... فالشيخوخة أن نتوقف يا ابنتي عن فعل شيء ما.

- صدقتِ... لقد كنتُ حبيسـة البيت والعمـل... والماضي ثقله أكثر إيلامًا...

- ما زال الماضي يؤلمك...؟!

- نعم يا أمي...! ففيه أحداث غريبة...

- جئتِ باحثةً عن أشياء تُحيِّرك إذن...!

- نعم...! وأود سماعها منكِ... أنتِ وحدك قادرة على إعطاء معنًى لما حدث في صباي...

- نعم...! فأنت تعلمين ما كان يجب أن تعلمي... وإلا انتشرت الفوضى...

- لمَ منعتِ دموعي من السيلان ولساني من الشكوى... وانتصرتِ له؟!!

تنهَّدت عميقًا، ثم جاهدت لتقف، وقالت بصوتٍ واهنٍ:

- ما زلتِ تذكرين السكن القديم... هناك ستفهمين كل شيء... خذيني إلى هناك حالًا...

ذهبنا معًا إلى البيت الذي يختزل أحزاني وآلامي، هي تخطو حثيثًا وتجرُّ ساقيها الواهنتين، وأنا أسندها برفق حتى وصلت للبيت الذي صار خرابًا، وسكنته الغربان وانهار جزء من سوره.

كنست المكان بنظرةٍ حزينةٍ، جلسنا على عتبة غرفة، وأشارت بأصبعها بوهن:

- افتحي تلك الغرفة.. غرفة النوم...

فتحتها، ما زالت كما هي لولا الغبار والتراب، ثم أردفَتْ:

- هناك على الجدار... لبنة بها طلاء صباغة زرقاء، حركيها، وأخرجي ما يوجد داخلها..

فعلتُ كما قالت، حرَّكت اللبنة على الجدار وأخرجت كيسًا، قلبته، لم أجد فيه غير أساور ذهب وشظايا الهاتف الذي شججتُ به جبهة العجل ومنجلًا به آثار دم، تملَّكني الذهول، نقلت نظري إليها، ابتسمَتْ وقالَتْ:

- أبوكِ كان فقيهًا عالمًا، مات غدرًا ليلًا وهو في طريقه إلى زاوية سملالة، ولا أظن غير العجل الذي فعل هذا... فقد كان يقتل الرجال ليتزوَّج بالأرامل ويسطو على التركة، حين زوجوني منه، كنتُ حاملًا بك، وما كنتُ لأتركه يغتصبك، فقد كنت أتتبع أنفاسَه، ليلة الواقعة، حينما طلبتُ منك الصمت وعدم البكاء، ظننتِ أنني أنتصر له يا غبية...! والحقيقة... أدخلته لغرفة النوم وأكملت ما لا تستطيعين فعله، ذبحته بالمنجل من الوريد إلى الوريد في اليوم الرابع لفعلته، وما طوافي على الرجال لمنعه من الرحيل إلا خدعةً، حتى إذا غاب أيقنوا أنه أخذ ذهبي ورحل... نعم ذبحته... تعالي.. ساعديني لأقف..

خطَتْ نحو مكان الجُبِّ القديم الذي رُدم وطلعت منه شجرة تين غير مثمرة، وقالت:" هو الآن في عمق هذا الجب... بعدما ذبحتُه سحبته

للجب ورميتُ الكلب ليتعفن على مهل، وظللت أردم الجب يومًا عن يوم حتى امتلأ وزرعت شجرة تين... أبحث عنه في الأسواق والقرى، لأبعد الشبهة، ثم أرسلتُكِ عند خالتك خوفًا عليك من الضباع والذئاب.."!

نصف قرن وأنا أعيش آلام الخذلان الوهمي، اعتقدتُ أن هذه العجوز الطيبة أمي الحبيبة التي أنهكها المرض لا الزَّمن، وما زالت ذاكرتها قوية، تخلَّت عني مرتين، ليلة حاول العجل اغتصابي، وفضَّلت بقاءها بجانبه على إنصافي وفك الارتباط به وفضحه، والحقيقة غير ذلك، فأمي مظلومة... كانت فقط تقوم بما كانت تراه واجبًا، لم تسامحه، لم تبحث له عن الأعذار، أصدرت حكم الإعدام عليه، وخطَّطت للأمر بكل ذكاء ومكر... هو الآن تعفَّن وتحلَّل في حفرة عميقة، والكل يظنُّه هجرها وأخذ حُليها، ولعبت الدَّور باحتراف، فحين كانت تتوسل الرجال أن يُثنوه عن هجرها، كانت فقط تخطط للغياب غير المريب، وقد لطمت حين رحل... وظلت تبحث عنه حتى اكتمل الدَّوْر... وأُسدل الستار، وضِمنَ عبقرية هذا الدور كان عليها أن تبعدني بعيدًا...!

مدت إليَّ شظايا الهاتف الذي هشمتُ به جبهةَ المقبور، وقالت: "دورك الآن تخلصي من ظلال الماضي..."!

قبل أن نقفل عائدتين إلى دار خالي، حوَّلت الهاتف الصلب إلى هشيم تحت ضربات جلمود صلب، نظفت المنجل تنظيفًا وحين ولجت دار خالي قلتُ بسعادة: "هيه...! وجدت هذا المنجل في الطريق ربما تحتاجونه يومًا.."!

نظرت إليَّ سلوى بغضب وقالت: "ذهبتِ إلى بيت الطفولة دوني..."؟!!

قلت لها وأنا في حضن أمي: "لا فائدة فيه... حتى الكرمة الوحيدة فيه غير مثمرة...."!

ضحك الجميع، وتذكرتُ أن هناك هاتفًا آخر بشقتي بالرباط حان وقت التخلص منه.

لم يطل مقامُنا بالقرية طويلًا، وكان لا بد لي أن أعود إلى مدينة الرباط لترتيب عدد من الأمور، ما لاحظته في الديار أن سلوى كانت تطيل الحديث مع ابن خالي "سلام"، وكنت أتابعها بعجب!! كيف تخاطبه بلِين، وكيف استطاع أن يجعلها تضحك بصدقٍ، شيء ما نشأ بينهما أضاف بريقًا مُشعًّا في عيني سلوى، بل أثَّر حتى على طريقة خطوها التي صارت أكثر إثارةً، وحديثها غدَا عفويًّا، ولم تعد تتعقب بعقلها المُتَّقد الهفوات والهنَّات، تعلمَتْ بالديار ألا ترهن يومها باقتفاء زلات الآخرين ولعب دور المصلح، وحين أخبرتها بضرورة العودة، وإلا ما خرجنا إلا بصعوبة من مسلسل الولائم الذي سينطلق، وكل أسرة ستطلبنا في عشاء أو غداء، طلبَتْ مني أن أتركها تستريح هنا بعض الوقت، وتكمل ما بدأته بإخراج سلام من دار خالي التي لم يعد يغادرها، ولا حديث في القرية إلا عن جِنيَّة سجنته ومنعته من الخروج، بينما هي تعتقد أن ابن خالي الذي يبلغ من العمر خمسين عامًا مصابٌ برُهاب اجتماعي يمنعه من الخروج،

منذ صحا ذات فجرٍ على مشهد مؤلم لجثة زميله في السكن معلَّقة إلى حبل، تتأرجح فوق سريره، هذا الحدث أثَّر عليه كثيرًا وأضعف نفسيتَه ومناعتَه النفسية كما قالت سلوى، وأضافت أنها أخذت على عاتقها مهمَّة إخراجه من هذا المرض الممكن علاجه بطُرق متعددة، مهما طال الأمر وشقَّ، وقد بدأَتْ بالاطلاع لفهم الأعراض والمقاربات العلاجية.

ابن خالي سلام ذكيٌّ وفطن وكان في الطليعة عندما حصل على البكالوريا، التحق بالجامعة بمكناس وظلَّ رغم ذلك منطويًا على نفسه، وحين أنهى الدراسة الجامعيَّة عاد ولم يخرج أبدًا... وفعلًا زميله في السكن الجامعي انتحر شنقًا لأسباب لم يعرفها أبدًا!

وها هي سلوى تختار البقاء، وعليَّ الذهابُ لإعادة ترتيب حياتي، فلا يمكنني أن أكون كما كنت، والاستمرار في طريقة العيش ذاتها. ورغم ذلك قررت سلوى أن توصلني إلى الرباط بسيارتها لتخفف عني مشاقَّ السفر، في طريق الرحلة ساد الصمت لزمن طويل، ثم حدثتني بغبطة عن رقصة أحيدوس وحنان أمي، ثم تحدثت طويلًا عن سلام، الذي أشعرها بأنوثتها، وفتح لها قلبه وكشف خوفه وأسراره، فتجرَّأت قليلًا وأنا أنظر بطرف عيني وقلتُ بصوت خفيض:

- أسنعيش قصة حب يا سلوى....؟!

لم تردَّ عليَّ فورًا صمتَتْ طويلًا وهي تقلِّب السؤال وهمسَتْ:

- أكبر بكثير من الحب....!

- كيف...؟!

- سأخرجه من الدار... التي سجن نفسه فيها ثم...

- ثم ماذا...؟ سلام مجرد طالب عجوز...!

- وليكن... لكل وضع حل....!

- هو الحب إذن...؟!

- حينما ترغب المرأة في أن تصير عصفورًا على صدر رجل... نسمة في أنفاسه، حضورًا ولو خفيًّا في غرفته... نكهة في فنجان قهوته...

- هذا منتهى العشق... وهو هل عبَّر لك عن حبه...؟!

- بكى في حضني... وطلب مني ألا أعود.... وأن أظل معه...

- والعمل....؟! الصحافة...؟!

- الحب أولًا... لقد ضيعت كثيرًا من الوقت...

تشغل قرصًا لأغنية لأم كلثوم يصدح الصوت الجميل البهي: "جددت حبك ليه.... ليه..." تسوق بتأنٍّ هذه المرة، وتُردِّد الأغنية مقطعًا مقطعًا، وأتلهَّى أنا في التفكير الداخلي فيما وقع.... أما هي فلم أرها أكثر سعادةً من اليوم.

تخلَّصتُ من شقة إقامة مرجان بما فيها من أثاث، هشمت الهاتف حتى غدا شظايا، قُبض على الحاج رضوان في قضية مقتل الراقصة ياما،

بعدما تبين أنه كان يزورها خفيةً، وكان من عادتها أن تأخذ صورًا إباحية، وتمارس الابتزاز مقابل المال، ولها ضحايا كثيرون من جميع الطبقات..

فسقط في فخها كما سقط كثيرون، حلُّوا مشكلتهم بالمال، أما هو كرئيس لاتحاد الملاكين، فقد أعياه الابتزاز وقرَّر قتلها بتلك الطريقة الوحشية، قال لي جلول حارس البوابة: "إلى أين ترحلين... يا سيدتي...؟" قلتُ له: "إلى حي شعبي، أستطيع العيش مع الناس، وبين الناس ومع قطي الأسود، هذا العالَم مزيف... لا يطاق..."!

أخبرني بما تعرض له عند التحقيق، وقد سلبته عشرة ملايين بدعوى إقامة مشروع، ولو عملية المرارة لاتُّهِمت أولًا، فقد وجدوا بصماتي ولم يجدوا بصمة الحاج رضوان الذي كان يلبس قفازين... الستر يا رب.... الستر يا رب..."!

بعد عام وأنا بباريس عند ابنتي، وصلني هاتف من سلوى، تخبرني بأنها حامل وقريبًا ستلد، لم أسألها عن التفاصيل في العمل وخروج سلام من محبسه الطوعي، حتى لا أعكر صفو الخبر الجميل.

وإني اليوم لأبكي كل يوم فوته في انتظار الشيخوخة كمحتضرة تتطلع لوجه الموت بخوف وفضول رهيب، والشيخوخة ليست أرقاما ولا عدادا، فقد تعلن زمنها ألما وضعفا، ومن يراقب أعطابه عن كثب يصبح رخوا، وقد أدركت أن الحياة مفتوحة دوما على البهاء، وأجمل ما قدم عدنان إرادة الحياة والاحتفال المستمر بها، وكل عيد ميلاد صرت أخلده،

لم أعـد أراه غير فرصة نادرة للنهل مـن دفء الوجود في كلمات المحيطين مهـما بدت محنطـة، وحين تعلمت أن أسـكن الفضاءات لا أن تسـكنني، غـيرت عاداتي بتحويل فضاء عيشي إلى مقبرة أو متحف للأشـياء، وحين تخلصت من الهاتف التليد الذي سـكنني تخلصت من مصدر مزيف لقوة هشـة، فالتمسـت الأمان والقوة في عيـون النـاس وفي لقائهم، وغادرت الإقامـات الراقية لأسـكن بين النـاس، ليس لعيب فيها، بـل العيب كل العيـب أنها تغلـق كل النوافذ على الحيـاة الصخبة ...والحيـاة هي الناس والصخـب والأعراس وحتى الأحزان. كل صباح أخطوه نحو السـوق كان صباحا جديدا، كان نعمة ومنا ومنحة ودعوة مفتوحة للأمل، للحياة المتجددة في صخب الأطفال، وأحلام الناس ....

نعم بكيت... بكيت ... بكيت لكن هذه المرة مع الناس وبين الناس، فشعرت بدفق الرجاء في الدمع الساخن، ودفء البهاء في عفوية العناق ...

أنـا الزرافـة التـي تعلمت كيف تـدلي بعنقها ليتسـلق صبـي ظهرها، ليتسلل دانيال أحلامي، أما سلوى... تلك الهاربة من قسوة العالم بكثرة الأسـفار، فقد وجدت في ابن خالي حيث تسـتقر وتحلم وتغفو، وأنشأت في قرية تغسـالين ، جمعية لتأهيل النسـاء، وتحولت من صحافية لصفحة الزينة والعطور إلى امرأة تشق الطرق نحو الجبال المنافي لإنشاء التعاونيات وتوعيـة النسـاء، وإنقاذ القاصرات مـن الزواج القهري المدمـر... أما أنا تلك المرأة التـي وصفها زملاؤها بالزرافة لطولها فقط، فقد تصالحت مع

الزرافـة التـي في، وتخلصت من دموع القهر بالسـير دومـا إلى الأمام.... بالعيـش بـين النـاس.... بالضحـك معهـم والبـكاء بينهـم ولا حل مع الشـيخوخة غير مواجهتها بالحياة والضحـك والأحلام...وتنفس هواء الحيـاة المتجددة كل يوم في صخب الشـوارع، لا مـن وراء نافذة أو شرفة تزيف العواطف، تختزل الوجود البهي في رتابة العادات القاتلة.